



الجغرافيا البشرية

أ.د. إبراهيم دسوقي محمود

أستاذ الجغرافيا

وعميد كلية الآداب السابق

كلية الآداب

قسم الجغرافيا ونظم المعلومات الجغرافية

العام الجامعي
2023/2022م

بيانات الكتاب

الكلية: الآداب

الفرقة: الأولى

التخصص: برنامج المساحة ونظم المعلومات الجغرافية

عنوان الكتاب: الجغرافيا البشرية

تاريخ النشر: 2023م

عدد الصفحات: 215

المؤلف: أ.د. إبراهيم دسوقي محمود

فهرس الموضوعات

| الصفحات | الموضوع |
|----------------|---|
| <u>3</u> | <u>الفهرس</u> |
| <u>5</u> | <u>مدخل</u> |
| <u>29-7</u> | <u>الفصل الأول : الجغرافيا البشرية "تطورها وميدان البحث فيها"</u> |
| <u>51-31</u> | <u>الفصل الثاني : جغرافية السلالات البشرية</u> |
| <u>64-53</u> | <u>الفصل الثالث : الإنسان والحضارة</u> |
| <u>90-66</u> | <u>الفصل الرابع: جغرافية السكان</u> |
| <u>107-92</u> | <u>الفصل الخامس : جغرافية العمران</u> |
| <u>152-109</u> | <u>الفصل السادس :الإنسان واستغلال الأرض(أنماط مختلفة)</u> |
| <u>165-154</u> | <u>الفصل السابع :المجتمعات الزراعية</u> |
| <u>187-167</u> | <u>الفصل الثامن : مجتمعات العالم العربي</u> |
| <u>214-189</u> | <u>الفصل التاسع : الإنسان والدولة(الجغرافيا السياسية)</u> |

مدخل

"....أن التطور التاريخي لأي ظاهرة في الجغرافيا البشرية لا بد
وأن تتبع بدراسة وضعها وتوزيعها الحالي وعلاقته مع الظواهر
الأخرى...."

Vidal de La Blach فيدال دي لابلاش

(1918/1845م)

رائد الجغرافيا البشرية الحديثة

الفصل الأول

الجغرافيا البشرية

"تطورها وميدان البحث فيها"

الجغرافيا في العصور القديمة:

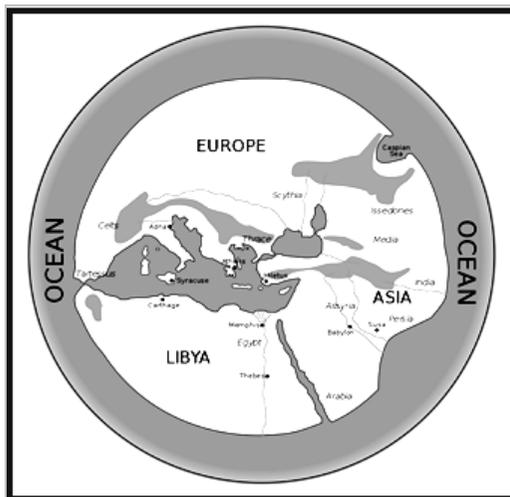
يدور محور الجغرافيا حول دراسة الإنسان والبيئة والعلاقة بينهما، ومن ثم فإن تحديد تاريخ معين أو نقطة محددة كبدائية لدراسة هذه العلاقة مسألة مرتبطة تمام الارتباط بالمرحلة التي حاول فيها الإنسان لأول مرة أن يتأمل بوعي وإدراك الظواهر المحيطة به، ويتطلع فيما حوله ليبحث عن إمكانيات البيئة التي يقطن فيها وذلك من أجل الملائمة بين حاجاته ومتطلبات حياته وطبيعة الموضع الذي يقيم فيه. ومعنى ذلك أن الإرهاصات الأولى للفكر الجغرافي بصورتها البدائية التي تتناسب مع تاريخ الفكر الإنساني حينذاك يمكن أن تظهر في المجهود الذي قام بها إنسان الحضارات القديمة.

ففي مصر الفرعونية، كما كان الحال في بلاد ما بين النهرين وفي الصين، ارتبط الفكر الجغرافي بالزراعة وحصر الأراضي عقب الفيضان وقيام حياة الاستقرار في بيئة سهلة ذلك إلى جانب تصورهم الخاص عن شكل العالم ومركز أوطانهم من هذا الشكل.

أما في العصر الإغريقي مع بداية القرن الرابع الميلادي زادت المعلومات عن الرقعة المعمورة ذلك لنجاح الإغريق في بسط نفوذهم الحضاري والعسكري علي أجزاء لم تكن معروفة من قبل فظهرت فكرة كروية الأرض التي نشأت حينذاك كفكرة فلسفية على اعتبار أن الكرة أكمل الأشكال الهندسية تناسقا من حيث بعد أطرفها عن المركز، وعلى اعتبار أن الأرض في نظر الإغريق أجمل المخلوقات ومن ثم لا بد أن يكون شكلها كرويا.

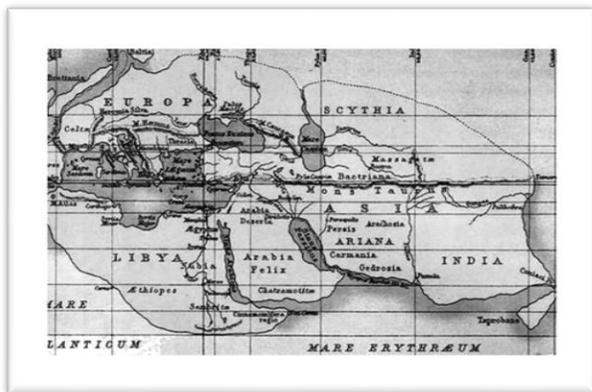
وقد ظلت فكرة كروية الأرض هي الفكرة السائدة عن شكل الأرض في نظر الإغريق إلى أن جاء أرسطو وبرهن على صدقها ونادى بأن كسوف الشمس خير دليل على ذلك – وقد تمكن بعد ذلك بعض

الفلاسفة الإغريق أمثال أراتوستين من دعم هذه الفكرة عن طريق
الأرصاد الفلكية كما
تمكن هيبارخوس



(خريطة هيكاتيوس)

Hipparchus بواسطة دراسته للفق وملاحظاته لطول النهار في
مناطق مختلفة من أن يتوصل إلي إيجاد مناطق عرضية أو نطاقات



عرضية عرفة باسم Climate، كذلك قام بطليموس في العصر الروماني
بتقسيم خريطة العالم تبعا لطول الليل والنهار، وألف كتابين جمع فيهما
نظرياته العلمية، والكتاب الأول معروف باسم المجسطي

واحتوى على كل النظريات الفلكية التي كان لها تأثير قوي علي الفكر
الإنساني في العصور اللاحقة إلي أن حلت نظرية نيوتن محلها. والكتاب
الثاني عرف باسم الجغرافيا وناقش فيه بطليموس الأسس النظرية لشكل
الأرض وأبعادها.

الجغرافيا في العصور الوسطى :

أما في الفترة الانتقالية بين العصور القديمة والوسطى – وإن كان من
الصعب تحديدها بنوع من الدقة – فقد اعتقد الباحثون أنه من غير المناسب وضع
الجغرافيا بين فروع الرياضة الأربعة وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك
أو بين الفروع الثلاثة للأدب وهي الشعر واللغة والنحو وذلك لأن الجغرافيا في
نظرهم تمثل نثرية أو بقايا للمعرفة التي لا تعالجها هذه الفروع الثلاثة السائدة

القرن

الميلادي.



خلال
السادس

وعلى أي حال فاهتمام رجال الدين في العصور الوسطى لمعرفة أصل

شكل الأرض

(رحلات ماركو بولو)

وتحركات سكانها جعلهم يجدون في الجغرافيا وسيلة لنشر تعليم الكنيسة.
وهكذا وجدنا أن كل الكتابات التي ظهرت في إرساليات العصور الوسطى كانت
تضم فصولاً عن الجغرافيا أو الكوزموجرافيا وهي العلم الذي يبحث في مظهر
الكون وتركيبه العام ويشمل علوم الجغرافيا الفلك والجيولوجيا، غير أن
الكوزموجرافيا في ذلك الوقت كانت ذات معانٍ مختلفة بالنسبة لمختلف الباحثين،

ففي نظر البعض كانت تعتمد أساساً على وصف نشأة الأرض وانتشار الجنس البشري فوقه بينما يرى آخرون أنها دراسة لظواهر الطقس والمناخ والنبات والحيوان الأحجار النادرة، بينما فريق ثالث قصد بدراسة الكوزموجرافيا ما نعرفه الآن تحت اسم التاريخ السياسي.

وهكذا يبدو أن الأفكار الجغرافية في القرن الرابع الميلادي لم تعد تشكلها آراء بطليموس، كما أن آراء هيروdot و ايراتوستين وهيبارخوس لم تعد تقبل من جانب المفكرين، ومن ثم ففي الفترة ما بين القرن الخامس الميلادي وبداية القرن 15 الميلادي نلاحظ في أوروبا أن هناك إشارات عابرة فقط لأفكار لبطليموس وتلاميذه، كما أن جغرافيته نادراً ما ذكرت.

وربما كان سبب ذلك هو أنه في خلال القرون الأولى لحياة الكنيسة المسيحية لم تكن التساؤلات العلمية والفلسفية مقبولة بل إنها لم تجد تشجيعاً من السلطات فتعاليم اللاهوت الأساسية التي قدمت إلي عقلية الناس وضعت الاختبارات والتساؤلات العلمية موضع الشجب وجعلتها سوء تطبيق لقوى الإنسان، كما أن بعض القساوسة ذهبوا إلي أبعد من ذلك فأحيوا آراء سقراط لأن الشيء الوحيد النافع هو تعليم واجبات الأخلاقيات وتعاليم الدين.

أما بالنسبة للفكر الجغرافي في العالم العربي في العصر الوسيط فقد اختلف في مضمونه ومنهجه عن الفكر في أوروبا فقد كانت من أولى الأعمال العربية هي ترجمة عديد من الكتب اليونانية إلي العربية مثل كتابات جالون وهيبوقراط و بطليموس، ومن ثم فقد أقبل العرب على الاستفادة من كتاباتهم ، ولذلك ظهرت في البصرة في غضون القرن العاشر الميلادي أول موسوعة عربية حاول فيها العرب الجمع بين العقيدة والمعرفة وكان لهذه الموسوعة أثر كبير على الجغرافية العربية في غضون القرنين 12، 11 حيث أصبحت كتابات أرسطو في نظرهم تلخيصاً للفكر الجغرافي. هذا ولم يتبع العرب كل ما ذكره الإغريق في مجال الفكر الجغرافي بل كان لديهم آرائهم الخاصة ذلك إلى

جانب أنهم فندوا كثيرا من آراء بطليموس، وأعادوا حساب طول الدرجة وتوصلوا إلى نتائج دقيقة ويبدو ذلك بوضوح في كتابات البتاني والمسعودي.

وقد أخذت المعرفة العربية تتطور بفعل عامل الرحلة حيث جمعوا

بواسطتها الكثير من عادات

سكان البلاد وعن منتجاتها

ذلك بغرض إدارة وحكم

هذه البلاد ذلك بالإضافة إلى

حب المعرفة وعامل الدين،

كل ذلك ساعد على ثراء

التراث العربي. فمنذ

القرن 7م. أخذت تتجمع لدينا

معلومات وصفية عن



المناطق والأشياء التي شاهدها الحجاج بأنفسهم فظهر كتاب المسالك والممالك

لابن خرداذبه وفيه تصور "أن الأرض مستديرة" تشبه الكرة وأنها موضوعة

في السماء كما توضع المحا في جوف البيضاء. وأن الجزء الشمالي من الأرض

معمور غير أن الجزء الجنوبي صحراوي وذلك بسبب الحرارة الشديدة التي

تسودها، ومن الكتب المشابهة لكتاب ابن خرداذبه كتاب اليعقوبي الذي ركز فيه

على التفاصيل الاقتصادية والتضاريسية، وكتاب البلخي الذي يتكون أساساً من

الخرائط الإقليمية، وكتابي الأصبخري والمقدسي "المسالك.." واللذان كانا لهما

أكثر من كتاب ولم يكتفيا بتسجيل الملاحظات فحسب بل سجلا

أيضا كل ما سمعاه من الناس ذوي المعرفة.

وتعد أعمال الإدريسي أعظم عمل عربي في العصور الوسطى إذ يمثل

نقطة احتكاك بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية إذ يلاحظ الباحثون أن الأدب

الجغرافي العربي بعد الإدريسي تضمن أساساً أدب الرحلات ولم يكن يتسم

بالأصالة كما كان في الفترة السابقة وإن كان الخوارزمي قد كتب في عام 1250م كتابًا عن التاريخ الطبيعي على غرار بلييني Pleny كما كتب ياقوت الحموي معجم البلدان.

أما ابن خلدون فقد كتب "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" في غضون القرن 14. وفي هذا الكتاب لم يفسر ابن خلدون التاريخ على ضوء تطور النظم السياسية كما فعل اليونان بل على ضوء تطور الأوضاع الاقتصادية للمجتمع البشري في صورته البدوية والحضرية والمدنية. وقد اعتمد ابن خلدون في كتاباته على مصدرين أساسيين وهما بطليموس والإدريسي ومن ثم فقد قسم العالم المعمور إلى سبعة أقاليم وكل واحد من هذه الأقاليم قسمه بدوره إلى عشرة أجزاء وبعد ذلك تعرض ابن خلدون للنظرية التي انتشرت في الأدب الجغرافي العربي ومؤداها خلو البلدان الواقعة جنوب خط الاستواء من السكان لإفراط الحر فوقف منها موقف المتشكك وحاول أن يوفق بين تفكيره المتسم بالواقعية والنظرية المتوارثة عن العلم اليوناني.

هذا وقد أسهب ابن خلدون في مقدمته في الحديث عن البدو والبدوابة وعلاقة ذلك بالحضر، فخصص الفصل الثاني "عن العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل" والفصل الرابع عن "البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض ذلك من الأحوال"، وذكر أن "البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البداية أصل العمران، والأمصار مدد لها" والحقيقة أن هذه الفصول التي تحدث فيها عن البلدان والمدن والأمصار شيقة ولا تبعد في إشاراتها عن الآراء الحديثة في علم الجغرافيا.

أما أبو الفدا فقد كتب في القرن 16م موسوعة علمية كبيرة تعكس الوضع الفكري في ذلك القرن حيث لخص كل النظريات التي تعرض لها الباحثون قبله ولاسيما البيروني. وفي الواقع تعكس أفكار أبو الفدا بوضوح الفكر الجغرافي

العربي في أواخر العصور الوسطى حيث بدأ يظهر تدريجيًا في أواخر القرن 15م. عدم الاقتناع بالتراث الكلاسيكي وبالنظريات المعترف بها حينذاك وكان من نتيجة ذلك أن طرحت آراء بطليموس جانبًا.

حتمية عصر النهضة:

وقد شغل أيضًا موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة وأثر البيئة على التجمعات البشرية أذهان بعض مفكري عصر النهضة الذين كان من بينهم بودان Bodin الذي عاش في الفترة ما بين عامي 1520 – 1596م ومونتسكيو Montesquieu صاحب كتابا "روح القوانين" الذي ظهر في القرن 17م.

وقد اعتنق بودان مبدأ الحتمية إذ ربط بين المناخ وطبائع الناس وحاول أن يبرهن في "الجمهورية" على أن شكل الجمهورية ينبغي أن يتطابق مع صفات البشر المختلفة ومن ثم فقد ضرب بعض الأمثلة التي تعكس وجهة نظره الشخصية وتبين أن البيئة تؤثر في طبائع الناس وتفكيرهم فذكر أن أهل المناطق الجنوبية الحارة لهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل ولكن من طباعهم الأخذ بالثأر والمكر في حين يمتاز أهل المناطق الشمالية الباردة بالقسوة والمخاطرة، بينما أهل المناطق المعتدلة أكثر يقظة دون غيرهم بالقدرة على القيادة".

وقد حاول مونتسكيو أن يربط كما فعل بودان من قبله وابن خلدون بين طبائع البشر وصفاتهم وبين البيئة، فاعتبر الإنسان كائنًا فرديًا أو وحدة طبيعية تقابله قوتان وهما المناخ والتربة. لم يكن المناخ في عرفه غير الحرارة كما اقتصررت أنواع التربة عنده على الخصبة أو غير الخصبة ومن ثم أتت دراسته لها عامة وسطحية

وقد كان المناخ في نظر مونتسكيو إما حارًا أو باردًا أو معتدلاً وأن الأقاليم الطبيعية لا بد وأن تقسم على هذا الأساس ومن ثم ينتقل بعد إلى إطلاق بعض الملاحظات غير الصحيحة مثل :

- لا تشمل قارة آسيا منطقة معتدلة بمعنى الكلمة بل تتلاحق فيها الأقاليم الشديدة الحرارة بالأقاليم الباردة.

- قارة أوروبا على النقيض من قارة آسيا تشمل المنطقة المعتدلة فيها مساحة كبيرة وتحتوي على أنواع متعددة من المناخ.

- أما مناخ أفريقيا فيشبهه في ظروفه مناخ جنوب آسيا ولذلك فتأثيره على الجماعات البشرية في القارتين مماثل، ولذلك فقارة أفريقيا مثل آسيا "ترسف في أغلال الاستعباد".

وقد تحدث مونتسكيو أيضاً عن أثر السهل والجبل في طبائع الناس وفي نظمهم السياسية فربط بين السهول الخصبة وقيام المجتمعات الزراعية والاستقرار وكيف أن الارتباط بأرض والاهتمام بالزراعة يجعل الفلاحين لا يفكرون إلى في إنتاج أرضهم. وكيف أن السهول تجذب الغزاة ومن ثم كانت مركزاً وموطناً للملكيات المستبدة والديكتاتوريات. أما سكان الجبل فتتعم بلادهم بحرية سياسية لأنهم لا يخشون شيئاً ومن ثم كانوا أقوى وأشد بأساً من قاطني السهول.

والخلاصة أن كتاب هذه الفترة وجهوا اهتمامهم لدراسة طبائع الشعوب قبل أن يهتموا بدراسة الأرض والبيئة الجغرافية التي تعيش في كنفها هذه الجماعات ولم يلجئوا لدراستها لتفسير ما يغمض عليهم من الطبائع البشرية أو نظم الحكم المختلفة. فلقد نظروا إلى البيئة الجغرافية والمجتمعات الإنسانية وربطوا بينها بعلاقات سببية دون فحص أو دراسة ولا عجب في ذلك إذ أن هدفهم كان التبرير لا التعليل.

الجغرافية الحديثة:

منذ أن بدأت الكشوف الجغرافية الكبرى في عصر النهضة طرأ على الجغرافيا تغيراً كبيراً، وقد ظهر أثر هذا التغير في اتساع رقعة المعمورة وفي

تطور الفكر الجغرافي ودراسة الإنسان والبيئة. وعلى الرغم من هذا التقدم إلا أن نمو الجغرافيا الحديثة كان بطيئاً. ففي أثناء القرن 18 وهي الفترة التي تقدمت فيها العلوم الطبيعية ظهرت نظريات مختلفة تفسر وجود المجموعة الشمسية وتشرح تكوين تضاريس القشرة الأرضية. ففي عام 1766 ظهرت نظرية كانت Kant التي أرجع فيها تكوين المجموعة الشمسية إلى قوتي الجذب والطررد للأجسام الصغيرة الصلبة التي كان يزخر بها الكون، كما ظهرت نظرية الأرض Theory of earth لجيمس هتن Hutten بعد ذلك بحوالي ثلاثين عاماً.

وقد ذكر في هذه النظرية أن القوانين هي المسؤولة عن تكوين التضاريس القشرة الأرضية إذ بسببها تمدد الصخور الداخلية الذاتية لأنها كانت متنفساً لها ومن ثم تجمعت القشرة الخارجية للأرض وتكونت مظاهر التضاريس.

كارل رتر وهمبولت :

وقد كان لتأثير نظرية دارون ومبادئ لایل أثر قوي على دراسة الجغرافية بصفة عامة ولا سيما على دراسة الجغرافية النباتية والحيوية، وعلى دراسة الإنسان ذاته وعلاقته بالبيئة الطبيعية ومدى ملاءمته لها والبحث عن أسباب وسبل هذا التوافق أو عدمه.

ومن ثم فأقبلت الجغرافيا على العلوم التي تتصل بالإنسان والبيئة تنهل منها بشغف لتفسير عمليات الملاءمة المادية في ظل نظرية دارون فأخذت تستعين بعلم المناخ والأنثروبولوجيا والتاريخ وغيرها من العلوم الاجتماعية، كما تبنى كارل رتر وهمبولت وراتزل في ألمانيا هذه النظرية التي لا يزال لها أثر كبير في الفكر الجغرافي حتى الآن. فقد حاول

ريتر أن يحدد العلاقة بين تاريخ الإنسان وبيئته الطبيعية National environment واعتمد في ذلك على الملاحظة الدقيقة المقارنة المتضمنة البحث عن القوانين الطبيعية التي يعيش في ظلها الإنسان.

أما عن همبولت (1769 - 1859) فقد رحل إلى أمريكا الجنوبية

والوسطى في الفترة ما بين عامي 1799 -

1804م وظهرت نتائج رحلاته في كتاباته

التي ظهرت في الفترة ما بين عامي 1804

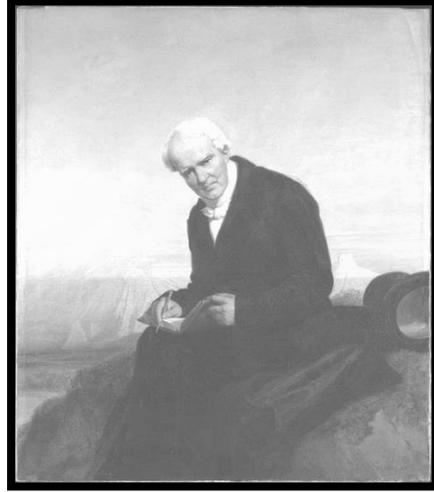
- 1825م والتي من

أشهرها كتاب "العالم Cosmas

وفي الواقع لقد سبق كارل رتر

وهمبولت عصرهما إذ لم تكن لديهم المادة

أو الأدلة الكافية لكي يصف نظريات



(فون هامبولت)

عامة أو قواعد ومن ثم كان على أتباعهم الذين ساروا على نهجها أن يجمعوا مزيدا من الأدلة ويواجهوا الصعاب التي واكبت التطور السريع والتي من أهمها التخصص الدقيق.

ففي عهدهما لم تكن الكشوف الرئيسية لقارة أفريقيا قد تمت بعد لأن وسط أفريقيا لم يعرف قبل عام 1880م، كما أن أجزاء كثيرة من قارة آسيا والتي كتب عنها رتر وهمبولت ظلت في عداد الأراضي المجهولة إلى أن تمكن الرحالة الروس وغيرهم من المكتشفين أمثال سفين هيدين، وأوريل ستين وريتشهوفن من كشف أسرارها في أواخر القرن التاسع عشر.

كما أن الرحلات التي قامت بها الباخرة تشالينجر Challenger في الفترة ما بين عامي 1870 - 1873م كان من نتائجها تحديد أعماق المحيطات ومعرفة طبيعة تحركات المياه السطحية بها، ذلك بالإضافة إلى أنها أمدتنا

بمعلومات وافية وأولية عن مناخ المحيطات إذ تمكن بوشان Buchan الميترولوجي الذي ذهب في الرحلة من رسم أول خرائط للضغط والحرارة الخاصة بالعالم والتي تعتبر أصل الخرائط المناخية الموجودة في خرائطنا في الوقت الحاضر.

فردريك راتزل والحتمية :

ورغم الجهود السابقة فقد ظلت العلاقة بين الإنسان وبيئته غامضة حتى نهاية القرن التاسع عشر حينما نشر راتزل F. (1844 - 1904م) كتابه "جغرافيا الإنسان Anthrop graphic وعرف فيه الجغرافيا البشرية بأنها دراسة مظاهر سطح الأرض وعلاقتها بالإنسان على أسس منظمة وبعبارة أخرى فقد حاول أن يدرس نشاط الإنسان البيئي وكيفية استغلال الأرض مؤكداً في معظم كتاباته حتمية القوى الطبيعية على نشاط الإنسان مهما بلغت بساطته.



(فردريك راتزل)

وقد كان لنظرية النشوء والارتقاء لدارون بالغ الأثر في تفكير راتزل الجغرافي فنرى تطبيقها واضحاً في كل أعماله ففي كتابه "جغرافيا الإنسان" درس توزيع التجمعات البشرية في مجال أنشطتها المختلفة، والعوامل البيئية الطبيعية التي تؤثر في هذا التوزيع وأثر البيئة المباشر على المجتمع. كما أنه في كتابه الثاني عن الجغرافيا السياسية Politics geographic الذي نشر في عام 1897 تعرض راتزل للقوانين الطبيعية التي تتحكم في نمو الدولة وتكوينها،

فدرس الدولة على ضوء علاقاتها بالبيئة وأساسها الطبيعي الفزيوغرافي أي الأرض التي يشغلها.

وقد وجدت آراء وأفكار راتزال صدى وتأکید صدى وتأکید كثير من الكتاب مثل مس ألين سمبل Ellen simple في أمريكا وديمولان Demolin في فرنسا وغيرهم من أصحاب فلسفة الحتم الجغرافي الذين اعتنقوا نظريات راتزال في كتاباتهم فاندفعت مس سمبل تؤكد في عزم وإصرار – بعد أن أعادت كتابة جغرافية الإنسان بشكل أكثر تنظيمًا في عام 1911 – أن الإنسان ابن البيئة التي تطعمه وتوجه أفكاره وتضع الصعاب في طريقه ثم تهمس له في أذنه بالحل أما ديمولان فذهب ليشرح "كيف يخلق الطريق الطراز الاجتماعي أو كيف مهد الحصان نبات الاستيس للإنسان".

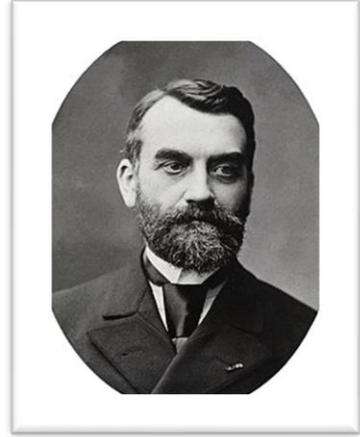
ولقد قوبلت آراء راتزال بنقد مرير من علماء الأنثربولوجيا والاجتماع والتاريخ. فرفض الأنثربولوجيون الاعتراف بأن البيئة الطبيعية هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن الاختلافات العقلية والنفسية الموجودة بين الجماعات البشرية، وأنكر دوركيم Durkheim على راتزل دراسته لكل تأثيرات البيئة الطبيعية في الحياة الاجتماعية، بينما هاجم لوسيان فيفر Lucien Fever راتزال بقوة وذهب ليفند آرائه بجرأة ويقدم البراهين على سذاجة وضيق أفق الحتميين.

ويذكر لوسيان فيفر أيضاً في تحليله لآراء راتزل وأتباعه "أن الظروف الجغرافية قد تختلف في المنطقة الواحدة في القوة والقيمة فمثلاً قد تستفيد المدينة وهي في دور الطفولة من بيئة منعزلة محصورة تجد فيها الأمان. ولكن نفس البيئة (بنفس الصفات التي تتميز بها والتي كانت ذات فائدة كبرى في مرحلة سابقة) وقد تصبح عائقاً لها في وقت آخر، وقد عُرفت تلك الفترات كل من مصر وفينيقيا وكريت وشبه جزيرة اليونان، فكل منها كانت تتمتع بشيء من العزلة مكنها من اكتساب ميزتها الخاصة في بيئة آمنة. ولكن بعد أن اكتمل نموها لم تصبح للعزلة ميزة.

ثم يستطرد في قوله : " تقوم المجتمعات البشرية وتنمو وتزدهر عند نهايات الطرق التجارية العالمية في نقط التقائها ... هذا كله صحيح ولا يدعو إلى النقد بشرط ألا يكون هناك أي حديث عن الضروريات. فليس هناك ضرورة حتمية صلبة آلية

فيدال دي لابلاش Vidal de La Blach والإمكانية :

ظهرت في خلال القرن العشرين طرق عملية متنوعة لدراسة العلاقات المكانية. ففي فرنسا مثلاً كانت الجغرافيا في خلال القرن الماضي يقوم بتدريسها المؤرخون الذين كانوا يشيرون دائماً إلى الجغرافيا على أنها مجرد وصف لتأثير البيئة على التطور التاريخي. ولهذا فقد وجه فيدال لابلاش (1845 - 1918) نظر علماء عصره إلى أن الجغرافيا لا يصح أن يزج بها في الدراسات التاريخية وأن الدراسات الحقلية Field work يجب أن تتضمن في أي مسح جغرافي.



(فيدال دي لابلاش)

وقد اعترض فيدال دي لابلاش على حتمية راتزل وأتباعه ونادى باحترام قدرات الإنسان وإمكاناته. كما ذكر في كتابه الذي صدر في عام 1922 أن التطور التاريخي لأي ظاهرة في الجغرافية البشرية لا بد وأن تتبع بدراسة وضعها وتوزيعها الحالي وعلاقته مع الظواهر الأخرى.

وهكذا استجد على الجغرافية مبدأ جديد يتلخص في الإمكانية، غير أن ظهور هذا المبدأ لا يعني انقراض المبدأ القديم إذ ظل بعض العلماء يعتقدون هذا

المبدأ حتى النصف الثاني من القرن العشرين. غير أن حتميتهم كما تظهر في كتابات جريفث تيلور. كانت حتمية مؤقتة تتلخص في ثلاث كلمات وهي Stop & Go & Determinism وعبارة أخرى فهذه حتمية حديثة تتلاعب بالألفاظ فتستبدل الضابط بالمؤثر والتأثر بالاستجابة أو التكيف.

والإمكانيون بصفة عامة أكثر حذراً وحيطةً من الحتميين في معالجة موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة فلم يتطرفوا في تحميل الإنسان أكثر من طاقته بل أكدوا الوحدة الجغرافية وحاولوا إبراز جانبها البشري والطبيعي أولاً ومن ثم النواحي البشرية المختلفة التي ترتبط وتتأثر وتؤثر في الجانب الطبيعي. والخلاصة أن الجغرافيا في نظر أصحاب الإمكانية لم تكن مهمتها في أي ناحية من نواحي دراستها هو البحث عن القوانين الجغرافية أو وضعها وإنما مهمتها الأساسية هو دراسة الإنسان والأرض أو دراسة التجمعات البشرية وعلاقتها بالمسرح الجغرافي الذي تقيم عليه. أي أن المهمة مهمة فكرية قائمة على التوزيع والربط والبحث عن المسببات والعلاقات التي وراء هذا النمط أو التوزيع. وبطبيعة الحال تشابه الظروف الجغرافية في بعض الأماكن قد يؤدي في بعض الأحيان إلى إطلاق التعميمات ولكن لا يمكن أن تتخذ من هذه التعميمات قوانين نطبقها على كل إقليم إذ أن الشخصية الذاتية لكل إقليم لها قيمتها التي تؤثر في الصورة النهائية أو الوحدة الجغرافية التي يظهر عليها الإقليم.

هذا هو الإطار العام الذي رسمه فيدال دي لابلاش للتفكير الجغرافي في فرنسا منذ أن شغل كرسي الجغرافيا في جامعة السربون عام 1898م والذي سار على نهجه من بعده عدد من التلاميذ المخلصين الذين دافعوا عن آرائه بحماس لا يقل بأي صورة من الصور عن حماس لابلاش نفسه ومن بين هؤلاء ديمانجون A. Denangeon و J. Qumbas اللذان كتبا مقالات عديدة في هذا الصدد في دورية 'Annals Geographies' في خلال الفترة ما بين عامي 1920 - 1929م. هذا وقد عرف ديمانجون الجغرافية على أنها دراسة المجموعات

البشرية والمجتمعات وعلاقتها بالبيئة مع تأكيد أهمية العامل التاريخي في دراسة المحلات العمرانية.

أما في إنجلترا فقد قاد التفكير الجغرافي الحديث روكسبي P.M. Roxby

وفلير Fleure فنشر الأول في عام 1930 مقالا في مجلة Geog. Magazine، وضح فيها أن التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة هو محور الدراسة البشرية التي تتجه لدراسة الجغرافية الجنسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى يظهر بوضوح التأثير المتبادل بين الإنسان والأرض ومدى التكيف بينهما.

أما فلير فهو من عمالقة الجغرافية البشرية في إنجلترا ومن أشهر مؤلفاته "دهاليز الزمن The centaurs of time (1927 – 1956م) الذي جمع فيه بين الدراسات الأركيولوجية والأنثروبولوجية والجغرافية ليخرج لنا بالاشتراك مع بيك Peake. قصة تطور الإنسان من البربرية إلى المدنية.

الثنائية في الجغرافيا:

وإذا كان هذا هو الاتجاه العام الذي تبلور فيه التفكير الجغرافي في النصف الأول من القرن العشرين إلا أنه نتيجة لتطور العلوم وزيادة المعلومات الجغرافية الخاصة بالإنسان والأرض ظهرت بصورة واضحة الثنائية في الجغرافية ووجد من الباحثين من فصل بين الجغرافية الطبيعية وجانبها البشري وفرق بين المظهر الحضاري Culture landscape وما يتصل به من دراسة الجغرافية الحضارية Cultural geography وبين المظهر الطبيعي Physical landscape وما يتصل به من دراسة الجغرافية الطبيعية Physical geography.

ويشمل القسم الأول دراسة السكن والسكان ووسائل النقل، والإنتاج الصناعي والزراعي والمعدني، وبصفة عامة الاستغلال الاقتصادي للأرض والمظاهر المادية الملحوظة الناتجة عن تفاعل الإنسان مع البيئة. ويرتبط بهذه

المظاهر المادية الملموسة بعض النواحي الحضارية والسياسية التي هي جزء لا يتجزأ من الاستقرار البشري.

أما القسم الثاني فيضم دراسة المناخ ومظاهر التضاريس المختلفة والتربة والثروات المعدنية والمياه الباطنية النباتات والحياة الحيوانية بجميع مظاهرها. وفي الواقع أن هذا التقسيم كان من نتيجة التخصص الدقيق الذي صاحب التقدم العلمي السريع أبان العصر الحديث. غير أن التطرف في هذا التخصص يفقد وحدة الجغرافية التي نادى بها فيدال دي لابلاش إذ أن هناك ظاهرات طبيعية النشأة غير أن الإنسان أدخل عليها تعديلات مختلفة كزراعة التربة مثلاً ومن ثم الظاهرات المادية بشريها الطبيعي والبشري هي عناصر الوحدة الجغرافية التي يجب ألا يهمل عنصر من عناصرها.

هذا وقد شهد القرن العشرين تقدماً ملحوظاً في ميدان الجغرافية الطبيعية بفضل الدراسات الحقلية المختلفة التي تقدم بها العلماء والمهتمين بهذه الدراسة لتفسير نشأة الأرض وتوزيع اليابس والماء، ولشرح الظاهرات التضاريسية الرئيسية والعوامل المختلفة التي تؤثر في تاريخها الجيولوجي وتشكلها، ولتفسير أيضاً بعض الظاهرات الجوية المعقدة كالأعاصير، والانخفاضات الجوية وتقسيم العالم إلى أقاليم مناخية.

أما بالنسبة لتوزيع اليابس والماء فقد نشر فجنر Wegner في عام 1912م مقاله المعروف عن نشأة القارات والمحيطات والذي شرح فيه نظرية زحزحة القارات. كما أن جولي Jolly تقدم بعد ذلك بنظرية أرجع فيها سبب زحزحة القارات إلى الحرارة الناتجة عن تفاعل العناصر الإشعاعية التي يغلب وجودها في القشرة الأرضية في طبقة لا يتعدى سمكها 20 ميلاً وبذلك ناقض رأي فجنر الذي يرجع زحزحة القارات إلى تأثير القوة الطاردة المركزية وقوة جذب الشمس والقمر للأرض.

وإلى جانب ذلك فقد تقدمت أيضا في تلك الفترة دراسة النباتات الطبيعية إذ أنها مرتبطة تماما بالجغرافية المناخية ومن ثم خطت الدراسة الخاصة بإظهار هذا الترابط وشرح أساسه ومبادئه خطوات سريعة إلى الأمام وأصبحت تدخل في نطاق علم الأيكولوجيا Ecology الذي يجعل الفضل في خلقه إلى عالم النبات الألماني Kackel.

أرسي التطور المتواصل في الفكر الجغرافي عدداً من الاتجاهات الحديثة التي ألفت بظلالها علي بنية علم الجغرافيا التي تضم : مناهجه العلمية وأساليبه وأدواته البحثية ، وكذلك مفاهيمه ومجالاته وميادينه المعرفية . حيث الاستناد إلي الطرق الإحصائية والمعادلات الرياضية وبرامج التحليل للبيانات بالكمبيوتر (مثل SPSS وغيرها) في معالجة البيانات الجغرافية المتراكمة ، مما يسهم في التفسير العلمي الموضوعي لكثير من العلاقات بين الظواهر المتنوعة والاختلافات المكانية والتحليل الدقيق للمشكلات الجغرافية ، وعدم الفصل بين الجانب الطبيعي والبشري في الدراسة ، والوصول إلي نتائج تتسم بالدقة والموضوعية إضافة إلي إمكانية وضع تصورات مستقبلية.

والجغرافيا من خلال هذه التعريفات تركز على النقاط التالية :

- الوصف فهو المرحلة الأولى والأساسية في تأسيس ذلك العلم ، ويتناول وصف سطح الأرض بمظاهره المورفولوجية المختلفة ، والظواهر المناخية التي عليه ، والأشكال النباتية النامية وأنواع التربة والسكان ونشاطهم وعمرانهم والمشاكل السياسية التي يعيشون فيها ، ويستقى هذا الوصف من الأقاليم أو المكان ذاته بالانتقال إليه ، أو كما يسمى بالدراسة الميدانية أو الحقلية " Field Work " ومن خلال الرحلات والزيارات التي قام ويقوم بها الرحالة والمستكشفون .

- التحليل والتفسير وهو المرحلة الثانية من مراحل العمل الجغرافي ، إذ على الجغرافي أن يبحث عن تفسير لأسباب الظاهرة تفسيراً معقولاً ومقبولاً ، إذ مثلاً وهو يتحدث عن أمطار المنطقة وكمياتها عليه أن يبحث عن أسباب سقوط المطر من انخفاض للحرارة أو ارتفاع لها وأثر هذه في نوع الضغط الجوي وخط سير الرياح والمناطق التي تمر عليها وحالة تشبعها ببخار الماء ولماذا تكثف بخار الماء وسقط في هيئة أمطار ، وبنفس الأسلوب في أى ظاهرة بشرية ، إذ أن هدف الجغرافيا وهى تستقصى الأثر أن تصل إلى المؤثر.

- تقنين المعلومات الجغرافية وهو المرحلة الثالثة من مراحل العمل الجغرافي أى الخروج بقواعد وقوانين وحقائق ثابتة من خلال المرحلتين السابقتين ، فمثلاً من دراسة سكان منطقة ما كظاهرة بشرية ودراسة نموهم فإنه مع فرض ثبات العوامل المؤثرة فى النمو.

- التوزيع الجغرافي وهو أساس من أساسيات علم الجغرافيا ، وأن يكون هذا التوزيع على خريطة كتوزيع أقاليم العالم السكانية أو توزيع الأقاليم السياسية أو الاقتصادية فى العالم أو الأقاليم المناخية وغيرها من عناصر الجغرافيا المختلفة ، إذ أن هذا التوزيع هو نتاج التفاعل النهائي بين عناصر البيئة الطبيعية والبشرية .

- الترابط والعلاقات بين ظواهر الجغرافيا المختلفة يجب إبرازه والتأكد عليه فظاهرة واحدة من ظواهر الجغرافيا لا يمكن أن تدرس مجردة منفصلة عن باقى الظواهر إذ لا يمكن أن تنشأ الظاهرة الواحدة بدون تفاعل مع العناصر الأخرى.

- إبراز أوجه التشابه والاختلاف بين الظاهرة الواحدة فى أماكن العالم المختلفة مثل الفرق بين حرفة الرعي التي تسود مناطق السافانا والاستبس أو أوجه الاختلاف بين حرف الإنسان المختلفة فى مكان واحد ، مع بيان أسباب التشابه أو الاختلاف .

- تخدم الجغرافيا مجموعة من العلوم الأصولية مثل علم الجيولوجيا والاقتصاد والسياسة والتاريخ وغيرها من العلوم التي ترتبط معها ، وفي ذات الوقت هي تخدم هذه العلوم.

-الثنائية ظاهرة واضحة فى الدراسات الجغرافية ، إذ أنها تتألف من شقين الأول طبيعى والأخر بشرى ولا يمكن إهمال احدهما للآخر فحينما تدرس ظاهرة طبيعية لابد أن تدرس ارتباطها بالعناصر البشرية الأخرى وهنا الازدواج والثنائية.

- تقترن الدراسات الجغرافية بالخريطة والأخيرة تلازم الأولى ولا تفترق عنها لحظة فالخريطة للجغرافي عدته وسلاحه بدونها لا يستطيع العمل والجغرافيا بدون الخريطة شيئاً آخرأ غير الجغرافيا ، إن الخريطة هى الصورة الناطقة للظواهرات الجغرافية لأوجه التفاعل بينها ، إن الخريطة للجغرافى فى صورة مرآوية تعكس سطح الأرض والمظاهر البشرية التى على هذا السطح وتوضح مدى التفاعل بين الإنسان وبيئته.

- تلقى الجغرافيا ضوءاً على معالم إقليم ما فى الماضى وكذلك الحاضر ، وتأتى صورة ماضى الأقليم من خلال دراسة الأدلة التى أمكن العثور عليها فى هذا الأقليم ، فهى تعين على دراسة الملامح الجغرافية التى كانت تسود هذا الأقليم ، وتأتى صورة الحاضر من خلال المشاهدة والملاحظة التى يقوم بها الجغرافى فى اقليم ما ، ويستطيع الجغرافى أيضاً أن يعطى صورة مستقبلية لنفس المكان فى الأزمنة التالية .

-اتجهت الجغرافيا الحديثة إلى الجانب التطبيقي ، ولم تعد قاصرة على الجانب النظرى الأكاديمى ، إذ أصبحت تسهم بجانب كبير فى حل المشاكل اليومية التى يعانيتها الفرد ، وهذا أمر طبيعى طالما أنها تعتنى بالإنسان فى دراساتها فلا بد أن تعنى بحل المشكلات التى يعانى منها ، وأصبحت الجغرافيا من العلوم التى تسهم فى خدمة البشرية.

- اتجهت الجغرافيا الحديثة الى الاعتماد على الوسائل الاحصائية فيما يعرف باسم المنهج الكمي . وقد أصبح هذا المنهج أكثر استعمالاً فى الجغرافيا التطبيقية وطبيعى أن يكون الأمر كذلك حتى ترقى النتائج إلى درجة من الدقة العلمية تمكن المسؤولين عند التنفيذ من اتخاذ قراراتهم على أسس سليمة.

المراجع:

1. عبد الفتاح وهيبة، الجغرافيا البشرية وتطورها ومفهومها، منشورات جامعة بيروت العربية، 1966.
2. لوسيان فيفر، الأرض والتطور البشري، ترجمة: محمد السيد غلاب، مجموعة الألف كتاب، عدد 1949، الجزء الثاني.
3. محمد السيد غلاب، البيئة والمجتمع، القاهرة، 1969.
4. يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، الإسكندرية، 1972.
5. _____، المضمون البشرى فى الجغرافيا، دار الإشعاع للنشر، 1999م.

- المراجع غير العربية:

6. Ackerman, E., Geography as a fundamental research discipline, Chicago, 1958.
7. Beazley, R., The dawn of modern geography, 1897.
8. Bruneges, J., Human geography, London, 1928.
9. Dickinson-Haworth, making of geography, Oxford, 1934.
10. Febre, L., Geography introduction to history, London, 1925.

- 11.Hartshorne. E., The nature of Geography, A.A.A.G., 1959, Vol. XXIX.
- 12.Kimble, G.H.T., Geography in the middle ages, London, 1963.
- 13.Wooldridge, (S.W) and East (W.G.), The spirit and purpose of geography, London, 1956.
- 14.Sample (E.), Influence of Geographic environment, N.Y., 1911.
- 15.Ththam. G., Geography in the 19th century, In Geography in the twentieth century, edit by G. Taylor, London, 1951, P.29.

الفصل الثاني

الأصول السلافية للبشر

(جغرافية السلاف البشرية)

تمثل جغرافية السلالات البشرية فرعاً حيوياً من فروع الجغرافيا البشرية ، وتهتم بدراسة الإنسان من حيث أصله وسلالاته ومميزاته الجسمانية وهجراته والمسالك التي اتخذتها في ضوء ظروف البيئة الطبيعية ، وتعتمد على علم الإنسان أو علم الأنثروبولوجيا " Anthropology "

انصب الاهتمام بدراسة الجنس البشري Races of Mankind في البداية على علماء "الأنثروبولوجيا الطبيعية" Physical Anthropology والذين ركزوا على تطور الإنسان وتتبع أصوله القديمة مع الاستعانة في ذلك بعلوم أخرى مثل "البيولوجيا Biology (علم الأحياء) وأيضاً "الأثنولوجي

Ethnology والذي يهتم بدراسة الحضارات في الوقت الحاضر و"الأركيولوجي Archeology (علم الآثار)، وقد زاد الاهتمام بأصول الإنسانية الأولى وثار جدلاً واسعاً بشأنها عقب نشر كتاب "أصل الأنواع Origin of Species" لتشارلز دارون سنة 1859م، والذي رسم فيه صورة مركبة لتتابع الأحياء وكيف أن البسيط يسبق المعقد ويتقدمه زمنياً، وحاول "دارون" في كتابه هذا إثبات علاقة إحيائية بين القديم والحديث.

أما علم الجغرافيا فقد اهتم منذ نشأته بدراسة الإنسان كأحد أضلاع اهتمام الجغرافيا ذاتها (الإنسان، المكان) ، واستفادت الجغرافيا في دراستها لتطور الإنسان وانتشاره بالعلوم المتصلة بدراسة الإنسان كالأنثروبولوجيا والبيولوجي والإثنولوجي والآثار والتاريخ وغيرها من العلوم الأخرى، وأبرز ذلك إضافات جغرافية لها أثراً ملموساً في جغرافية السلالات البشرية من حيث دراسة نشأة الإنسان وموطنه الأصلي ثم انتشاره ومسالك هذا الانتشار على بقاع المعمورة، وتميز كل مجموعة بشرية بصفات خاصة وسمات مميزة تعكس تشابهاً بينها وتبايناً مع غيرها ودور العوامل البيئية والبشرية المتفاوتة في هذا التشابه وذلك الاختلاف.

تتشارك الأحياء البشرية في أصل واحد انتابه التغير كنتيجة لمقتضيات تغير البيئة الجغرافية وقد انتقل هذا التغير عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف فحدث تغير سلالي خلال أجيال متعاقبة ومتعددة ، ثم ما تلبث أن تختلف الفروع عن الأصول بعد مرور فترة من الزمن وتكون هذه الفروع أصولاً مستقلة والأخرى بدورها تتفرع منها فروع أخرى وهكذا.

وتسهم "الطفرة Mutation" في إحداث التغير السلالي، والطفرة عبارة عن ظهور صفات وراثية جديدة مفاجئة أثبتت جدارتها وتكيفت مع البيئة، وتحدث نتيجة لاختلافات في التكوين الكيميائي للوحدات الوراثة أو الكروموزومات وتكون الطفرة مسئولة عن تكون نوع جديد يصبح فرعاً قائماً

بذاته منفصلاً عن غيره من حيث الأصل وبمرور الزمن تقوى الصفات الطافرة في النوع الجديد وتزداد تخصصاً وتبعد تماماً عن الفرع الذي تشعبت منه إلى أن تدخل في دائرة جنس جديد.

بالإضافة إلى الطفرة هناك عوامل أخرى لها دور فعال في عملية التغير السلالي التي تنتاب النوع الواحد "كالاختيار الطبيعي *Natural Selection*" و "الاختلافات العشوائية *Genetic Drift*" والمسئولة عن اختيار الإمكانات والصفات التي يمكن أن تعمر مع البيئة، ومعنى ذلك أن الوراثة والبيئة كانا أساس عملية التطور عبر التاريخ إذ أن التطور في حد ذاته ليس إلا نتيجة لعمليات تلائم الكائنات مع البيئات المختلفة التي يعيش في كنفها الإنسان.

- ظهور الإنسان:

انتاب كوكب الأرض خلال الزمن الرابع (البلايستوسين) تقلبات مناخية وتطورات في البيئة الجغرافية فحدثت فترات جليدية في العروض الشمالية بينما شهدت العروض الوسطى فترات مطيرة، بالإضافة إلى أن العلاقة بين اليبس والماء أخذ شكله النهائي خلال هذه المرحلة.

تؤرخ أقدم البقايا البشرية التي وجدت للإنسان إلى عصر البلايستوسين والتي ترجع إلى أقدم من مليون سنة، وقد تطور الإنسان تطوراً سريعاً في البلايستوسين واتفقت فترة تطوره السريع مع الأدوار الجليدية البلايستوسينية ولذلك يربط العلماء بين الحديثين - تطور الإنسان وظهور الجليد - ويعتبرون الحادث الثاني مؤثراً في الأول واتخذ العلماء آثار الإنسان دليلاً على الزمن الذي استغرقه في تطوره.

الموطن الأصلي للإنسان :

أدت التنوعات السلالية وتباين الصفات الجنسية للمجموعات البشرية وكذلك التغيرات الجغرافية التي شهدتها المسرح الجغرافي للإنسان خلال

البلايستوسين إلى التساؤل عن "المهد الأول" للإنسان والذي نشأ وتطور فيه وانتشر منه بعد ذلك إلى بقاع المعمورة؟

وقد انقسم رأى العلماء بشأن الموطن الأصلي للإنسان إلى ثلاثة اتجاهات الاتجاه الأولى نادى بأن الوطن الأصلي للإنسان كان قارة آسيا والرأى الثانى ذهب إلى أن أفريقيا كانت الموطن الأصلي فى حين جمع الاتجاه الثالث بين الرأيين حيث رأى أصحابه بأن الوطن الأصلي للإنسان كان يمثل جزءاً من آسيا وجزءاً آخر من أفريقيا، وتحديداً وسط وجنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا، وحاول أصحاب كل رأى من هذه الآراء الثلاث أن يبرهن على صحة فرضه على أساس الاكتشافات الأثرية والبقايا الإنسانية، وإن كانت هناك عدة أسس يجب وضعها فى الاعتبار عند الحديث عن الموطن الأصلي للإنسان، أهمها:

- ملائمة الموطن الأصلي لطبيعة جسم الإنسان، أى أن البيئة الجغرافية لا بد وأن تتمتع بمناخ معتدل بين الحرارة والبرودة وأن كمية الأمطار تكون مناسبة لحياة نباتية متوسطة الكثافة وإمكاناتها تسمح بالصيد.

- لا بد وأن يتصف الموطن الأصلي بسهولة الحركة منه وإليه أى ملائمة للهجرات المتعددة التى قام بها الإنسان والتى أدت إلى انتشاره إلى جميع بقاع العالم ومن ثم تكوين أجناس بشرية متعددة ومتباينة وإن كانت ذات أصول واحدة.

وبناء على هذه الاعتبارات استبعد العالم الجديد إذ لم يكن إلا وطناً لمجموعة بشرية واحدة وهى الهنود الأمريكيين وكذلك استبعد الجزء الشمالى والأوسط من أوروبا والذي شهد فترات جليدية إبان نشأة الإنسان كما اتضح سابقاً وكذلك الحال شمالى آسيا والمناطق الوسطى الاستوائية فى أفريقيا، ويطرح البعض إقليم جنوب شرق آسيا أيضاً نظراً لتطرف موضعه، إلا أن بعض الباحثين يضعه ضمن أقاليم الإنسان الأول، على هذا الأساس يصبح إقليم جنوب غرب آسيا وشمالى أفريقيا وشرقها الموضع الأكثر احتمالاً لأن تكون

هى الموطن الأصى للإنسان فى ضوء الاعتبارات التى يجب توافرها فى المكان الأول للإنسانية.

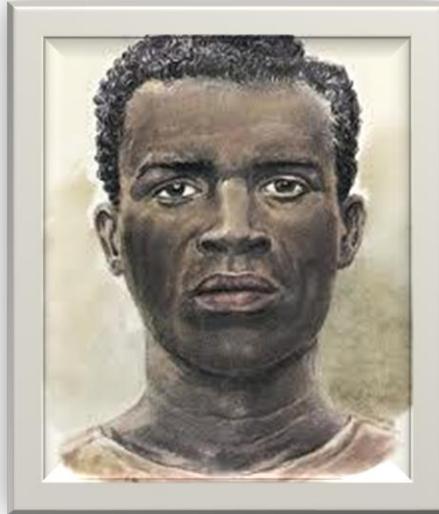
وتقدم المواضع المكتشف بها بقايا هياكل الإنسان الأول بعض الاحتمالات عن ذلك الوطن والذى منه انتشر إلى بقية أنحاء الكرة الأرضية. انتشار الإنسان:

بعد أن استجمع الإنسان قواه عن طريق التنظيم الاجتماعى والحضارى فى الفترة ما بين (50.000 - 10.000 ق. م.) وبعد أن اتخذ من شمال أفريقيا وشرقها وأيضاً جنوب غرب آسيا وطناً له وبعد أن نمت صفاته الجنسية وقدراته الحضارية بدأ فى الانتشار إلى بقية أنحاء العالم القديم والهجرة إلى العالم الجديد، فى هذه الفترة بدأت الاختلافات السلالية تظهر فى مناطق جغرافية واضحة المعالم ويمكن مقارنتها بغيرها، وكانت هذه الاختلافات الجنسية نتيجة لملائمة المجموعات البشرية لظروف بيئتها على مر السنين.

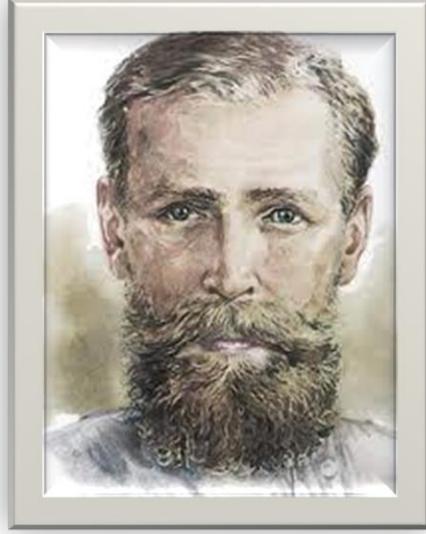
فارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها وسهولة الأرض وخصوبتها وجفاف الإقليم أو رطوبته ووفرة العيش أو قلته واختلاف خطوط الطول ودوائر العرض... كلها عوامل تجمعت سوياً وتعاونت لتظهر التفاوت السلالى.

فى المناطق الاستوائية بأفريقيا انتشرت المجموعة الزنجية بصفاتها المميزة (البشرة السوداء، الشعر المجعد والمفلل، الشفاة الغليظة المقلوية،

تفاوت طول القامة ما بين الأقزام إلى القبائل النيلوتية أطول



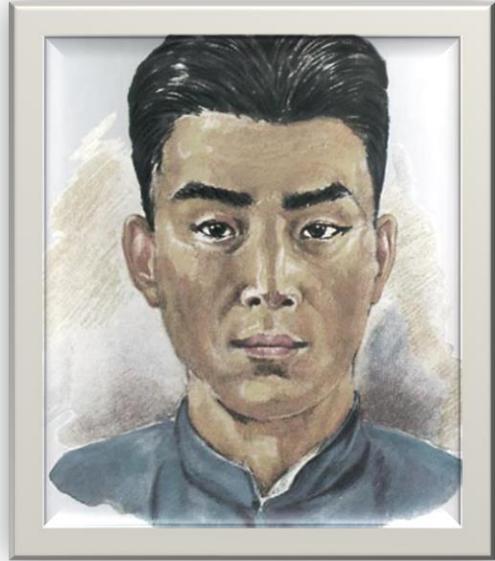
أما عن المجموعة القوقازية فقد عمرت منطقة واسعة تمتد شمال إقليم
الزنج في أفريقيا واشتملت على شمال أفريقيا وغرب آسيا في الهند وسيلان
وقد وصل القوقاز إلى أوروبا عن
طريق شمال أفريقيا عبر جبل طارق
ثم غرب أوروبا والطريق الآخر عبر
حوض الدانوب ومن ثم شمال غرب
أوروبا وقد استطاعت هذه الجماعات
نقل الزراعة إلى حوض الدانوب
وبلجيكا وفرنسا وشواطئ المتوسط.
وإلى الشرق من الإقليم القوقازي
يحتل المغول منطقة واسعة تغطي
شمال وشرق آسيا حتى شبه جزيرة
الملايو وسومطرة وغيرها من جزر



الهند

الشرقية كما تشمل أيضاً اليابان وفرموزا(تايوان) ومناطق أخرى في العالم
الجديد تقطنها عناصر مغولية، والصفات السلالية للمغول هي (الشعر الأسود

الخشن المستقيم، الأنف الضيق المفلطح العريض، اللون الأصفر أو الزيتوني أو
 البنى، العيون الضيقة ذات
 الجفون السميقة) ويعد إقليم
 شمال شرق آسيا الموطن
 الأصلي للمغول حيث
 اكتسبت فى هذه المنطقة
 القدرة على تحمل البرودة
 الشديدة، وقد وقفت السلاسل
 الجبلية فى وسط آسيا عقبة
 أمام توسع السلالة المغولية
 غرباً، لذا كان توسعهم تجاه



الشرق والجنوب.

بالإضافة إلى هذه المجموعات الثلاث الكبرى التى تسود العالم توجد
 ثلاث مجموعات أخرى فرعية قديمة سلالياً وحضارياً، وأول هذه المجموعة
 "البشمن" والذين كانوا ينتشرون فى بادئ الأمر فى إقليم متسع بأفريقيا
 وينحصرن حالياً فى صحراء كلهاى ويتصف البشمن بالقامة القصيرة (5
 أقدام) ولون البشرة بنى مائل للاصفرار والوجه مفلطح والشعر مفلفل.

أما الأستراليون فهى المجموعة الثانية وتشتمل على عديد من الجماعات
 القديمة لا يوجد بينهما أى صلة قرابة وتحتوى على "الأستراليون الأصليون"
 الذين يعيشون فى المناطق المعتدلة فى جنوب شرق استراليا و"الدرافديون" فى
 جنوب و جنوب شرق الهند و"الأينو" سكان اليابان الأصليون.

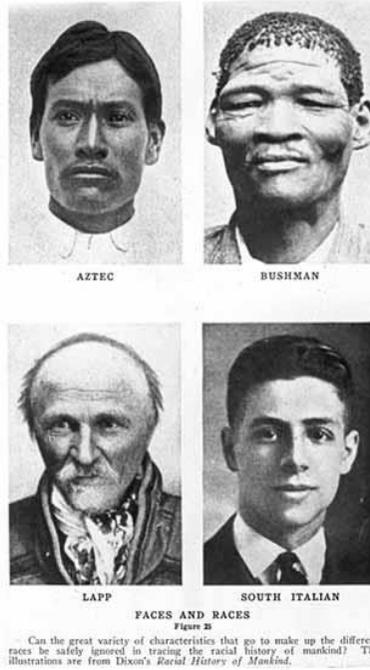
أما المجموعة الثالثة من هذه السلالة الفرعية فهم "البولينزيون
 والميكرونزيون" وهم سكان جزر المحيط الهادى ويتصفون بـ "البشرة السمراء
 ، شعر أسود مموج ، عيون سوداء، أنف ضيق بارز، فم صغير، شفاه صغيرة،

قائمة متوسطة" ، وإن كانت بعض عناصرهم تنسم بطول القامة كما هي الحال في جماعة التانجوس، وقد اختلطت هذه السلالات الفرعية بعناصر سلالية أخرى كالمغول والقوقاز وكذلك التزاوج الداخلي بينهما. ولكن يتبقى التساؤل عن معايير التصنيف السلالي للبشر، وما هو مدلول السلالة وتعريفها؟ قبيل التطرق لتوزيع الجنس البشري في العالم

تعريف السلالة:

تعد السلالات البشرية الحالية أفراداً لنوع واحد، والنوع عبارة عن مجموعة جنسية متجانسة لا تستطيع تحت الظروف الطبيعية العادية التزاوج مع غيرها من الأنواع.

وقد نتج عن انتشار الإنسان الواسع على بقاع المعمورة القدرة على الملائمة للظروف المختلفة حيث أصبحنا نشاهد الآن أنماطاً ونماذج متعددة من السلالات البشرية، فهناك الأبيض والأسود والأشقر ذو الشعر المجعد والمستقيم والمفقل وصاحب العين المنحرفة والأخرى الواسعة وذو الأنف



الأقنى والآخر المستقيم ... ولا يقتصر مجال الاختلاف على الصفات الجنسية بل هناك اختلافات في القدرات والمهارات والثقافة واللغة وغيرها من الاختلافات البيولوجية والحضارية والتي بواسطتها يحاول الأنتروبولوجيين استخدامها في تقسيم البشر إلى سلالات أو أنواع فرعية.

السلالة: تعنى التسلسل الأحيائي والذي يتضمن بدوره مفهوم الوراثة والتزاوج الداخلي بين أفراد المجموعة والمؤدى في النهاية إلى التجانس التام في الصفات

الجسمية بين أفراد هذه المجموعة وإلى تكوين سلالة نقية لا يدخل فى دمها دم آخر مختلف، وإن كان ذلك لا يحدث إلى فى حالات نادرة بين الشعوب البدائية والمنعزلة ومثل هذه السلالات الأقرب إلى النقاء مصيرها إلى الانقراض كما حدث مع التسمانيين.

ولكى نعرف "السلالة" أو "النوع الفرعى" لا بد وأن يكون على الأقل ما يقرب من 75% من أفراد المجموعة يتحدون فى صفاتهم البيولوجية المقارنة وذلك ما يعرف باسم "قاعدة 75% Percent Rule"، فإذا ما طبقت هذه القاعدة فسوف تقسم السلالات إلى أنواع فرعية البيض (القوقاز) المغول (الجنس الأصفر الآسيوى) الزنوج (السود الإفريقيون) ويسمى الانثروبولوجيون هذه الأنواع باسم المجموعات البشرية الكبرى أو الرئيسية، وداخل هذه المجموعات يوجد عدد من السلالات الفرعية.

حاول الإنسان منذ القدم معرفة ذاته وسط بقية شعوب العالم وإن كانت كل فئة تضع نفسها فى قمة التميز البشرى وتضع غيرها فى درجات متدنية، فالإغريق كانوا يعتقدون بأنهم الأفضل والأحسن مرتبة من الشعوب الأخرى، كما أشار هيرودوت (القرن الخامس ق. م) إلى أن الفرس كان شعورهم بأنهم أكثر ثقافة عن جيرانهم، وينطبق ذلك أيضاً على الرومان.

ثم جاءت الأديان السماوية وحرمت فكرة التميز والتصنيف بين البشر على أسس عرقية وغيرها فكانت المسيحية تنادى بالإخاء ونادى الإسلام بأنه "لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى..." إلا أن ذلك لم يمنع من وجود تصنيفات وتمايزات على أسس جنسية وعرقية.

وإبان عصر الاستعمار كانت هناك كثير من الآراء تنادى بأن الرجل الأبيض عليه سيادة الشعوب الملونة ووصل ذلك الأمر إلى إبادة شعوب واستخدام القوة فى ذلك (الهنود الأمريكيين - الزنوج...)، كما شاعت فكرة السيادة الألمانية والجنس الأرى وإبادة العبيد واليهود.

وفى العصر الحديث بدأت الآراء تتفاوت فى السلالات البشرية فمن هذه الآراء ما ربطت بين السلالة والحدود السياسية فاستخدموا السلالة البروسية واللاتينية وأيضاً السلالة اليهودية... ويبدو هنا الخلط بين السلالة وبين القومية والشعبية واللغة وأيضاً الدين كما هى الحال فى السلالة "اليهودية"، فهذا التصنيف خطأ علمى لا يركز على أسس علمية فالسلالة "اللاتينية" فى ذلك التصنيف تحتوى داخلها على عدة سلالات يمكن تمييزها حسب الصفات الجسمية.

ونفس الوضع ينطبق على استخدام لفظ سلالة على الجماعات المتحدثة بلغة واحدة أو التى ترتبط حضارياً، فظهرت تبعاً لذلك عدة تقسيمات لأوروبا مثل "الجرمان، السلاف، اللاتين" وهذا التقسيم ذو قيمة وأهمية من ناحية اللغة فقط ولكنه لا يفيد أنثروبولوجياً، وأيضاً لا يمكن قول "السلالة السامية أو السلالة الحامية" بل "اللغة السامية أو اللغة الحامية".

فباللغة والثقافة ليس لهما سند أحيائى صحيح وليس من الضرورى أن يكون أصحاب اللغة المشتركة منحدرين من أصل واحد، فاللغة أداة تعبير وتفاهم يمكن اكتسابها وتعلمها كمهارة سهلة الانتشار، فالشعوب المستعمرة فرضتها على مستعمراتها، فالعثمانيين فرضوا التركية فى شبه جزيرة الأناضول، والفرنسيين فرضوها فى الجزائر وغير ذلك...، وقد يحدث العكس أى اكتساب المستعمرين لغة مستعمراتها كما حدث مع النورمان باكتسابهم الفرنسية أثناء احتلالهم لفرنسا والفلستينيين اكتسابهم الكنعانية بعد غزوهم لفلسطين.

وفى بعض الأحيان تصبح اللغة حاجزاً ثقافياً كبيراً بين أفراد المجموعة الواحدة والسلالات المشتركة فى القرن الإفريقى باعدت اللغة بين الأثيوبيين وجيرانهم الصوماليين رغم الرابطة السلالية المشتركة بينهم.

يتضح من ذلك أن محاولات تقسيم النوع البشرى إلى سلالات اتسمت فى بادئ الأمر بالخلط بين الصفات الجنسية للشعوب وبين الحضارة واللغة وذلك

لعدم القدرة على التمييز بينهم، فكلمة سلالة استخدمت في معانٍ كثيرة غير أنه يقصد بها مجموعة من الناس ذات صفات جنسية متشابهة، غير أن هذه الصفات اختلف بشأنها العلماء والباحثون.

والمعروف أنه لا يوجد حالياً سلالة نقية بالرغم من أن هناك بعض الشعوب كالإندمان والبشمن والفدا حيث أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الشعوب والسلالات، ويجب التفريق بين مفهومى "الشعب" و"السلالة" فالشعب مجموعة من السكان تسكن دولة واحدة قد تضم عدة سلالات أو أجناس والنموذج الواضح فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى تحتوى بين حدودها (القوقاز - الزنوج - المغول - مجموعات قديمة ...) وأيضاً هناك الهند وفرنسا والمملكة المتحدة أما السلالة فتختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً إذ تحمل بين طياتها تاريخاً جنسياً طويلاً يصعب تحديد درجة نقاوته، فالتقسيم السلالى يعتمد على أسس متباينة وقواعد تبتعد كثيراً عن التصنيفات الحضارية والثقافية والسياسية، فمن الناحية البيولوجية والأنثروبولوجية هناك اتفاق على أن جميع أصناف البشر يستطيعون التزاوج وإنتاج النسل بغض النظر عن الاختلافات البيولوجية بينهم وكذلك البيئة الجغرافية التى تؤدى إلى ظهور اختلافات سلالية والتى بواسطتها يمكن للأنتروبولوجيين تقسيم البشر إلى سلالات وأنواع فرعية.

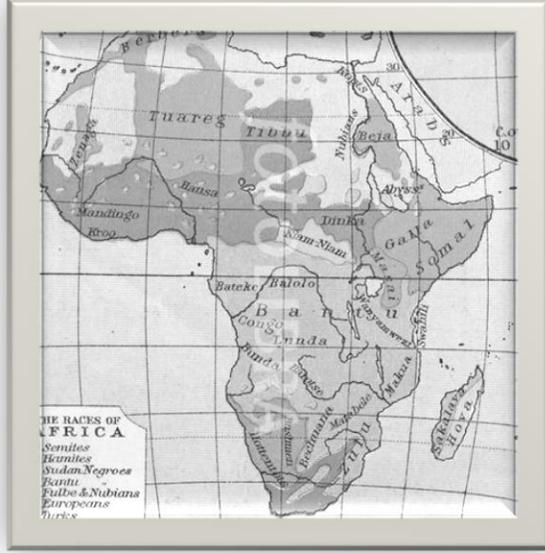
البيئة الجغرافية والتنوع السلالى:

تؤثر البيئة الجغرافية على التطور السلالى وذلك عن طريق عامل العزلة التى تنشأ عن وجود الحواجز الجغرافية كالسلاسل الجبلية والصحراء والمحيطات، بالإضافة إلى المناخ والغذاء.

الحواجز الجغرافية:

نشأت عدة سلالات

ثانوية أو فرعية نتيجة
تفرق لمجموعات بشرية
وانعزالها عن بعض بسبب
العوائق الجغرافية، وقد
كانت الحواجز الجغرافية
أهم العوامل التي تمنع
الاختلاط وتشجع
الاختلافات العشوائية،
فمثلاً فصلت الصحراء



الكبرى في أفريقيا بين سكان

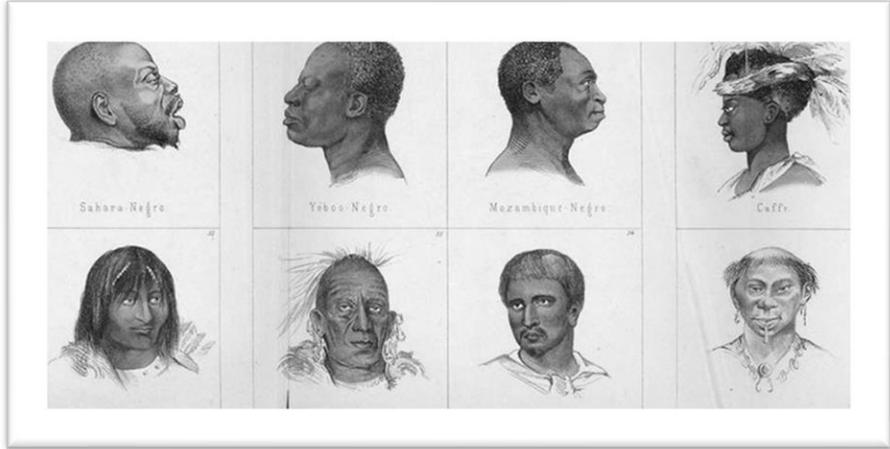
البحر المتوسط (القوقاز) والمجموعة الزنجية في أفريقيا المدارية، كما أن جبال
الهملايا فصلت بين مغول الهضاب العليا بوسط آسيا وسكان الهند القوقازيين.
فالحواجز الجغرافية كانت عاملاً قوياً ومؤثراً وقف أمام تحركات البشر
وإن كانت مقدرة الإنسان على الملائمة والتكيف مكنته من أن يعيش في ظروف
جغرافية وبيئات متباينة ومتنوعة، وتؤثر الحواجز الجغرافية على التنوع
السلالي في:

- منع وحدات وراثية جديدة من الظهور كانت ستبدو لو هناك اختلاط سكاني.
- خمول أو ركود عملية ضغط الاختيار بسبب قلة المنافسة في بيئة محدودة.
- ظهور الاختلافات العشوائية بسبب العزلة.

ويبدو أثر العزلة كبيراً على الجماعات الصغيرة فالمجموعة المغولية
ظهرت في بيئة منعزلة محاطة بالجليد خلال الفترة الجليدية الأخيرة وتمثل هذه
المجموعة نموذجاً للاختيار الطبيعي الديناميكي الذي يتضمن تكوين مجموعة
جنسية بيئية *Genotype* تتلائم مع ظهور قهرية لتغير البيئة، أما الاختيار

الطبيعى المستقر هو الذى تستطيع عناصره الممتازة أن تقاوم تغيرات البيئة
الفصلية كالتغير الحرارى وحدوث المجاعات الطارئة أو الأوبئة...

المناخ:



تشجع العوامل المناخية فى بعض الأحيان أثناء عملية الاختيار الطبيعى على
ظهور بعض الصفات السلالية واختفاء أخرى، ففي المناطق الباردة تتطلب
الملائمة للعيش فيها الإقلال من فقدان الحرارة بينما فى المناطق الحارة تفضل
الظروف المهيأة لترطيب الجسم.

ويبدو أثر المناخ على لون البشرة، ففي الصحراء المدارية حيث يسود
الجو الجاف تكون البشرة بنية وليست سوداء بسبب عدم وجود الرطوبة، ويرجع
لون البشرة الفاتحة لسكان الصحراء إلى أنهم لم يمض عليهم الوقت الكافى
لاكتساب لون البشرة الداكنة كالتوارق الذين وصلوا إلى الصحراء الكبرى منذ
ما يقرب من 1500 سنة.

واقترن اللون الأسود بالمناطق الحارة الرطبة بسبب كثافة عدد الحبيبات
الملونة فى الجسم، فاقتران لون البشرة السوداء بهذه المناطق، ويعتبر لون البشرة
هنا كعامل حماية لهم ضد أشعة الشمس القوية.

وأيضاً يرتبط المناخ بحجم الجسم فى البيئة الجغرافية، ففى المناطق الحارة يعيش نحاف الجسم (النوير - الدكنا - التوتسى)، أما الجماعات التى تعيش بالقرب من الدائرة القطبية ممتلئو الأجسام وينطبق ذلك على زوائد الجسم (الأطراف - الأذن - الأنف)، تكون قصيرة فى المناطق الباردة، فالإسكيمو يمتازون بالسيفان القصيرة وأيضاً الأصابع والأنوف، بينما سكان الصحراء على النقيض يمتازون بالسيفان الطويلة والأنوف البارزة.

الغذاء والأمراض:

يؤثر الغذاء على تكوين الجسم وبنائه فمن الملاحظ أن آكلى اللحوم يمتازون بالأجسام الضخمة وخير مثال لذلك صيادى الماموث فى العصر الحجرى القديم، وهنود سهول أمريكا حيث كان اعتمادهم على حيوان البيسون، وعلى النقيض من ذلك سكان جنوب شرق آسيا الذين يتصفون بالأجسام الصغيرة حيث يمثل الأرز غذائهم الرئيسى، ويلاحظ أن الأوروبي إذا ما اعتمد على الأرز فإنه يصاب بمرض البرى - برى وبعض أمراض فقر الدم الأخرى.

وفى جزر بولينزيا وميكرونيزيا يعتمدون على البطاطس واليام والسمك وجوز الهند وهم قريبو الشكل بالأوروبيين والأمريكيين وسكان غرب أوروبا من حيث بناء الجسم وطول القامة وبالرغم من أن غذائهم خال من اللحوم إلا أن عناصر غذائهم من أطعمة البحر تحتوى على عناصر بروتينية وفيتامينات.

أما غذاء سكان الصحراء يتركز فى كميات بسيطة من الأطعمة إلا أنها مليئة بالبروتينات والدهنيات والسكريات إذ يشتمل على اللين والتمر وبعض الحبوب.

وقد لعب المرض دوراً مهماً فى عملية الاختيار الطبيعى فى تاريخ البشرية، ففى مرحلة جمع الطعام التى استغرقت أكثر من 99% من تاريخ الإنسانية حيث كانت أعداد السكان قليلة، كما كانوا يعيشون متناثرين الأمر الذى ساعد على العزلة، ولكن مع حياة الاستقرار وظهور المحلات العمرانية

والحضرية وقبل التقدم الصحى والطبى عرفت الأوبئة والمجاعات بالسكان فعلى سبيل المثال قضى الطاعون الأسود على ربع سكان أوروبا خلال القرن الرابع عشر الميلادى، وكان من الطبيعى أن يؤدي مثل ذلك الوباء إلى تغير فى تكوين الوحدات الوراثية لدى السكان.

أسس تصنيف السلالات:

يعد "بليمنباخ *Blembacch*" (1775م) أول من نادى بأنه لا بد أن يؤخذ فى الاعتبار عند تعريف السلالة كل الصفات الموجودة، كما استطاع التعرف على التفاوت والتدرج فى الصفات بين المجموعات المختلفة وقد اعتمد على تقسيم لون البشرة وشكل الشعر ولونه، وطول القامة والمقاييس المختلفة لجميع أجزاء الجسم وتبعاً للون البشرة.

وفى خلال القرن الثامن عشر أمكن الحصول على معلومات وفيرة خاصة بقياس أعضاء الجسم لدى المجموعات البشرية سواء كانت هذه المقاييس تختص بالأحياء والهيكل، وتبع ذلك تبويب وتصنيف هذه المعلومات إحصائياً واستند عليها فى معرفة الاختلافات السلالية بين المجموعات البشرية والتي يمكن على أساسها تمييز سلالات معينة.

وأهم الأسس التى تستخدم فى تصنيف البشر إلى سلالات متنوعة هى الصفات الجنسية التى تستخدم فى تعريف السلالة وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً : الصفات الهيكلية (*الصفات المستترة*): وتحتاج لآلات خاصة لقياسها وملاحظتها وهى: شكل وحجم الجمجمة، الوجه، الأنف، الفك، الأسنان، شكل الحواجب، عظام الوجنات، طول القامة....

ثانياً : الصفات السطحية (*الصفات الظاهرة*): وهى التى تدرك بالعين المجردة مثل لون البشرة، شكل الشعر ولونه، لون العين وثنياتها، شكل الشفاه....

ثالثاً : فصائل الدم: تعتبر فصائل الدم من أهم العوامل الوراثية فى الإنسان ، إذ درست على نطاق عالمى سليم والسبب فى ذلك لا يرجع فقط إلى أن طريقة وراثته سهلة وبسيطة ولكن أيضاً لأهميته فى النواحي الطبيعية والعلاجية .

ومجمل هذه التصنيفات أن الجنس البشرى ينقسم إلى المجموعات الرئيسية الآتية :

- المجموعة القوقازية (Caucasoid) ويمتاز أفرادها بأن هياكلهم العظيمة أكثر ثقلاً وسكاً من عظام المجموعتين الأخرين ، كما أن عظام المفاصل أطول وعضلاته أكثر وضوحاً والجمجمة تمتاز بنمو الحواجب كما أن الوجه مستطيل والفك صغير والأنف طويل ومرتفع ، والدقن واضحة والأكتاف عريضة وتتركز المجموعة القوقازية فى أوروبا وشمال أفريقيا وجنوب آسيا وفى الهند ومن أهم سلالاتها سلالة البحر المتوسط والسلالة النوردية والسلالة الألبية والسلالة الأناضولية .

- المجموعة الزنجية (Negroid) ومن بين صفاتها الأنف العريض جداً والرأس الطويل والجبهة المستديرة والوجهة المتميز ب بروز وضخامة الفك العلوى والجزء الأسفل للفم ، والأكتاف الضيقة والعظام الطويلة الدقيقة ذلك إلى جانب طول كل من عظام الساق واليد بالنسبة إلى عظام الفخذ والساعد وتنتشر المجموعة الزنجية أساساً فى القارة الأفريقية ومن أهم سلالاتها البانتو والأقزام والنيليون والبوشمن والهونتوت .

- المجموعة المغولية (Mongoloid) : التى لا توجد بها صفات مميزة لعظام الجسم غير أن الرأس هى التى تحمل بعض الصفات الخاصة. فرأس المغولى تمتاز بأنها عريضة والوجه مستدير أو مفلطح والجبهة مرتفعة والأنف عريض جداً وهى قصيرة غائرة والعين منحرفة ثقيلة الأجفان كما أن الفك يمتاز بشيء



من البروز.

ويعيش أفراد هذه المجموعة فى قارة آسيا والعالم الجديد ومن أهم سلالاتهم الإسكيمو والمغول الحقيقيون والأتراك واليابانيون والكوريون وسلالة التبت والهيماالايا والسلالة الأندونيسية الملايوية والهنود الأمريكيون، أما عن الاستراليون الأصليون الذى يعيشون فى استراليا وجماعات الأينو وهم أجداد اليابانيين الحاليين وجماعات الفدا التى تعيش فى الهند والجماعات الميلانيزية والبولينيزية الذين يعيشون فى جزر ميكرونيزيا وبولونيزيا فى المحيط الهادى فجمعهم سلالات مركبة بمعنى أنهم خليط بحيث يتعذر وضعهم تحت المجموعات الثلاث الرئيسية ومن ثم فقد يضعهم بعض الكتاب فى مجموعة

قائمة بذاتها تعرف باسم المجموعة الاسترالية ومن أهم صفاتها أنها أقدم المجموعات البشرية على الإطلاق .

المراجع:

- إبراهيم رزقانة، العائلة البشرية، القاهرة، 1950م.
- جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة، 1967م.
- جمال حمدان، شخصية مصر، ج 2، القاهرة، 1981م.
- سيمونز، ج، لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية، ترجمة علي عون الأنصاري، سلسلة الألف كتاب، 1964م.
- فؤاد الصقار، التفرقة العنصرية في أفريقيا، القاهرة، 1962م.
- محمد السيد غلاب، تطور الجنس البشري، الإسكندرية، 1955م.
- محمد عوض محمد، سكان هذا الكوكب، القاهرة، 1936م.
- محمد عوض محمد، السودان الشمالي، القاهرة، 1951م.
- محمد عوض محمد، الشعوب والسلالات الأفريقية، القاهرة، 1966م.
- يسري الجوهري، الإنسان وسلالاته، الإسكندرية، 1993م.
- يسري الجوهري، أسس الجغرافيا البشرية، الإسكندرية، 1982م.
- المراجع غير العربية:
- Batrawi, A., The Racial History of Egypt& Nuba, J. A. I., VOL. 75, 1945.
- Batrawi, A., The Racial Relationship of The Ancient& Modern Population of Egypt& Nuba, J., A. I., VOL. 76, 1946.
- Brook, L., The Americas, London, 1943.
- Cola, S., Races of Man, London, 1963.
- Coon, C., Races of Europe, New York, 1939.

- Deniker, J., *The Races of Man*, Paris, 1900.
- Haddon, A., *Races of Man*, Cambridge, 1927.
- Hawells, W., *Mankind so far*, London, 1948.
- Huzayyin, S., *The Place of Egypt in Prehistory*, Cairo, 1941.
- Murray, G., *Sons of Ishmael ...*, London, 1935.
- Ripley, W., *Races of Eurobe*, London, 1899.
- Seligman, C., *Races of Africa*, London, 1939.
- Smith, E., *The Ancient Egyptian*, London, 1923.

الفصل الثالث

نشأة الحضارة

(الإنسان وتعمير الأرض)

مقدمة :

استطاع الإنسان أن ينتشر ويعمر معظم سطح الأرض وبذلك تمكن من أن يدخل تعديلات هامة على طبيعة الأماكن التي استقر فيها واتخذ منها موطناً فقد استطاع الإنسان بما لديه من موهبة التفكير وبإمكانيات حضارته المتطورة أن يدخل كثيراً من التغييرات على الغطاء النباتي. وأن يروض الحيوانات المفترسة ويستأنسها ويجنبها لصالحه وذلك في غضون بضعة آلاف من السنين وقد كانت آثار هذا التغيير أكثر وضوحاً من تلك التغييرات التي أحدثتها الطبيعة في ملايين السنين

ولكى تكون الصورة واضحة للأذهان لا بد أن نعرف أن الأقاليم الطبيعية الكبرى مازال موجودة في العالم إذا تمثل الإطار الكبير الذي يحوى في داخله الإنسان. وهذا المخلوق الذي تمكن بدوره من إدخال تعديلات طفيفة على المناخ وعلى التوزيع العام لمظاهر السطح .

ففي المدن الكبرى نشاهد قدرة الإنسان على التغيير حيث أقام ناطحات السحاب وشيد المصانع وأقام الطرقات وحفر الأنفاق لتمرر من تحتها القاطرات الكهربائية ، وتحكم في مجارى الأنهار فأقام السدود والخزانات والقناطر والكبارى وغيرها من التغييرات التي تشير إلى أن الإنسان لم يحدث تغييراً حضارياً كبيراً في أى بقعة من سطح الأرض مثلما فعل في المناطق التي تشغلها المدن الكبرى.

وقبل أن نتعرض لعمل الإنسان في مجال تغيير المظاهر الصغرى لسطح الأرض بغرض إيجاد البيئة المواتية ليعيش فيها لا بد أن ننظر أولاً إلى الإنسان ذاته كيف نشأ؟ وكيف انتشر على سطح الأرض؟ لا بد أن نعرف كيف يعيش هذا المخلوق الاجتماعى؟ لقد حصر المهتمون بدراسة الإنسان العوامل التي تحدد صفات الإنسان وسلوكه في عنصرين أساسيين وهما الوراثة (Heredity) والبيئة (Environment).

وتشير الوراثة فى أبسط مفاهيمها إلى العمليات البيولوجية التى تنتقل بواسطتها الصفات الجنسية من جيل لآخر. فعلى سبيل المثال إذا كان الآباء أصحاب قامة طويلة نحيفة وأنف بارز فأكثر الاحتمالات أن يحمل الأبناء نفس هذه الصفات الجنسية أو الطبيعية ومعنى ذلك أن كل فرد منا يرث إلى حد ما كل من الصفات الجسمية والعقلية لأبائه وأجداده ، وهذه الصفات هى التى نطلق عليها الصفات المورثة .

وإلى جانب اكتساب الإنسان لبعض صفات والديه الجنسية فإن الإنسان يكتسب أيضاً كثيراً من الأشياء من بيئته التى ينمو بها عن طرق التعليم والتقليد ، فطريقة سلوك الإنسان وتفكيره ترجع فى جزء منها إلى المهارات والقدرات والاتجاهات التى تعلمها .

والخلاصة أن الإنسان حيثما وجد سواء فى الصحراء أو فوق الجبال، فى الوادى أو السهل، فى الغابة أو الواحة، فى القرية أو المدينة، فى الكوخ أو الخيمة، سواء كان يعتمد فى طريقة حياته أو عيشه على الجمع والالتقاط أو الزراعة، أو الصناعة والتجارة، سواء كان يركب الخيل أو الحمير، أو يخلق بطائرة فى السماء أو يقود سيارة على الأرض، سواء كان يرتدى جلباباً أو زياً أوروبياً، سواء كان يتحدث اللغة العربية أو الإنجليزية أو الإنجليزية الفرنسية أو لغة أخرى فهو نتيجة للوراثة والبيئة بدرجات متفاوتة .

— الإنسان والحضارة:

هل نعتقد أننا نستطيع أن نقرأ التاريخ فى كتب المؤرخين فحسب؟ إذا كنا نعتقد ذلك فإننا جانبنا الصواب لأننا نستطيع أن نقرأ الكثير عن الماضى والحاضر من دراسة سطح الأرض الذى يكون المسرح الجغرافى الكثير من قص الشعوب والسكان الذين عاشوا عليه ومثلوا أدوارهم فوق ترابه. لكى نكون على بينة بالعلاقات القائمة بين الإنسان والأرض وهى محور قصص الشعوب لابد أن نتفهم مضمون المفاهيم التالية :

— الحضارة (Culture) :

لكل مجموعة من السكان طريقة خاصة فى الحياة ومنهج سلوكى معين يتعلمه الإنسان عن طريق تقليد أبويه أو عن طريق محاكاة أقرانه من الأطفال وهو يكتسب هذه المعرفة فى أثناء تعلمه لأن مجموع ما يتعلمه خلاصة الطرق المتبعة والتقاليد المقبولة فى مجتمعه .

ومعنى ذلك أن الحضارة شىء مكتسب لا يورثه الأب لإبنه أو الأم لوليدها ، فعلى الرغم من أن الفرد قد يولد ضمن مجموعة جنسية معينة (سلالة) إلا أنه يتعلم تبعاً لطرق الحضارة التى نشأ بها، وبعبارة أخرى الحضارة طريقة عيش إذ تتكون من الأفكار السائدة والمهارات والمعتقدات وطرق الاتصال ذلك إلى جانب الأشياء المادية التى تتمثل فى الآلات والأدوات والمباني، والعناصر الآتية تبين الأجزاء المختلفة التى تنطوى تحت مفهوم الحضارة:

- (أ) العناصر المادية وتشمل الأدوات والمهارات وطريقة عيش السكان .
- (ب) التنظيم الاجتماعى (الأسرة – القبيلة – والمجتمع) والمؤسسات الاجتماعية (التعليم – الأحزاب – السياسة - الحكومة).
- (ج) المعتقدات الدينية والسحرية.
- (د) الفنون – الموسيقى والرقص والتمثيل الخ.
- (هـ) اللغة.

وكما يبدو بوضوح أن الأجزاء المختلفة المكونة لمفهوم الحضارة قد تفصل عن بعضها لغرض البحث فحسب إذ أن أى محاولة لتفهم طريقة حياة أى شعب لابد أن تدخل فى اعتبارها تفهم العلاقة بين جملة هذه العناصر . ولتأخذ المعتقدات عيش السكان وهذا أمر يمكن ملاحظته بوضوح بين الهندوس الذين يحرمون ذبح الحيوانات ، كما لا يقبل الهندوس أيضاً على إنتاج الحرير رغم مساعدة الظروف الجغرافية على هذا الإنتاج والسبب فى ذلك اعتقادهم بتحريم قتل دودة الحرير قبل أن يستخرجوا الخيوط من الشرنقة.

وتمثل اللغة جانباً مهماً في الحضارة إذ أنها أداة التعبير للأفكار والآراء ومن ثم فلغة الشعب قد تحدد بدرجة واضحة طريقة تفكيرهم في الأشياء وترجمة الأفكار من لغة إلى أخرى تقتضى مقدرة علمية كبيرة لأنها تتطلب من المترجم ألا يعرف معنى الكلمات المقابلة فحسب بل تتطلب أيضاً تفهم الروح والأفكار المصاحبة لهذه اللغة .

ونهتم أيضاً بدراسة الجانب المادى للحضارة ومعرفة هل يعمل السكان من أجل سد مطالبهم؟ أو أنهم ينتجون البضائع ويتبادلونها من أجل الحصول على سلع وبضائع غير متوفرة فى بيئتهم ومن ثم يدخل تحت الجانب المادى للحضارة أيضاً طرق المواصلات ووسائلها.

تطور الحضارة :

حينما ندرس التاريخ نقرأ عن كيفية تغير السكان لطرق معيشتهم وعن الأحداث التاريخية الكبرى والشخصيات التاريخية التى كان لها دوراً كبيراً فى تغير مجرى الأحداث . ولكن إذا ما فحصت بدقة قصة الإنسان على سطح الأرض ستجد أن هناك فترات زمنية طويلة قد مرت على تاريخ الإنسانية لم يحدث فيها أى تغير يذكر فى طريقة حياة الإنسان حقيقة يوجد فى كل جيل قليل من الأفراد الذين يتقدموا بأفكار جديدة وطرقاً مبتكرة لعمل الأشياء ولكن إلى جانب هؤلاء يوجد الكثيرون الذين يؤيدون القديم، ويعارضون التجديد .

التغير الذى حدث فى تاريخ الإنسانية تم فى فترات قصيرة لأسباب طارئة وبدون مقدمات ولذا فتمسى الفترات التى شاهدت وعاصرت هذا التغير باسم الثورات (Revolutions) وإذا ما طبقنا مفهوم الثورة السابقة على الحضارة نجد أن تاريخ الإنسانية شهد أربع ثورات كبرى وهى:

الثورة الأولى: وحدثت منذ فترة طويلة من الزمن لا نعرف على وجه الدقة تاريخاً محدداً لها وذلك لارتباط هذا التاريخ بمشكلة تحديد بداية تاريخ استخدام الإنسان للحجارة فى صنع أدواته ، ولكن من المؤكد أن الإنسان استطاع فى ظل

هذه الثورة أن يستخدم الأدوات الحجرية فى طريق معيشته حيث عاش فى العصور الحجرية القديمة ، ولكى ندرك أهمية هذه العصور بالنسبة لتاريخ الإنسانية يجدر بنا أن نذكر أن العصر الحجرى القديم استغرق فترة طويلة من الزمن تقدر بحوالى أربعة أخماس تاريخ البشرية وأن الإنسان فى خلال هذه الفترة الزمنية كان ينمى قدرته اليدوية كصانع للآلات ويطور حياته الاجتماعية والعاطفية كإنسان

وإذا كانت الثورة الأولى فى التاريخ الحضارى للإنسان تميزت باستخدام الأدوات الحجرية فإنها برزت أيضاً بمعرفة النار ، وهذه السيطرة نقلته من المرحلة الأولية التى كان ينتمى إليها . حيث تمكن الإنسان بواسطة النار من أن يسيطر على البيئة ويحمى نفسه من الحيوانات المفترسة التى تخشى النار. واستخدام النار كان ضرورة اقتضتها الظروف المناخية لسكنى الكهوف إذ كانت وسيلة لتدفئة الكهف وفى نفس الوقت لإضاءته . وبواسطة النار استطاع الإنسان أن ينتشر فى رقعة أكبر من الأرض لأنها مكنته من أن يتحمل البرد فى الليالى شديدة البرودة وأن يتوغل فى الأقاليم المعتدلة الباردة والأقاليم الباردة . بالإضافة إلى ذلك استعمل النار فى إنضاج طعامه وبذلك أمكنه أن يضيف أنواعاً جديدة من الأطعمة التى كان يصعب عليه مضغها قبل معرفة النار. إذ أن طهو الطعام جعله مادة سهلة الهضم والتناول ومن ثم كان لهذا التحول أثره على عضلات الجسم ونظام الهضم وقيمة المادة الغذائية. ولهذا فإننا نعتبر معرفة النار من أهم الأحداث التى مر بها الإنسان فى تطوره.

ولقد أدى التطور العقلى أو الفكرى للإنسان فى هذه الفترة إلى ظهور اللغة والفن والدين. واللغة كانت أداة مهمة لنقل التراث الحضارى ودلالاتها الإنسانية لا تقل بأى حال من الأحوال عن قدرة الإنسان لصنع أدواته . فلولاها لأصبح التقدم الحضارى يعتمد كلياً على طريقة الممارسة والخبرة والتمرين .

الثورة الثانية: حدثت هذه الثورة قبل أن يتمكن الإنسان من تسجيل أحداثه وشهدت معرفة الإنسان للزراعة واستئناس الحيوان وبظهور الزراعة واستئناس الحيوان أصبح الإنسان لأول مرة منتجاً للقوت بعد أن كان مجرد مستهلكاً له ، وتعتبر هذه الخطوة ثورة مهمة فى تاريخ البشرية.

وتعتبر هذه الثورة هى "الثورة الإنتاجية الأولى" فى تاريخ البشرية إذ أنها تبين مرحلة اقتصادية هامة بين نهاية حياة الصيد وبداية اقتصاد المعدن. وهذه المرحلة تتفق فى توقيتها الزمنى مع العصر الحجري الحديث الذى استغرق فترة زمنية طويلة منذ بدأ فى موطنه الأول وهو منطقة الشرق الأوسط أى منذ ما يقرب من تسعة أو ثمانية آلاف سنة مضت واستغرق بعد ذلك فترة تتراوح ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف للوصول إلى غرب أوروبا من ناحية وإلى الصين من ناحية أخرى.

وهذه الثورة الإنتاجية لم تحدث فى وقت واحد فى كل أجزاء العالم غير أن فكرة بذر الحب ورعى الحيوان كان من السهل تقبلها عن طريق الانتشار الحضارى (Cultural Diffusion) بل أن تقبلها كان أسرع من تقبل التغييرات الطارئة فى صناعات الآلات مثلاً . فتربة الأرض والمناخ المناسب دفعت شعوباً مختلفة ذات عادات متباينة إلى أن تقبل ثورة إنتاج الطعام ومن ثم لاءمت بالتدريج حضاراتها لهذه الثورة.

وقد تعرض كثير من الباحثين لتفسير كيفية حدوث هذه الثورة ودواعى قيامها ومهبط ميلادها فاعتقد البعض أن الزراعة لم تنشأ نتيجة للحاجة للطعام وأن اختيار نوع النبات وأحاطته بالرعاية أمر يتطلب أن تقوم به جماعات تعيش فوق مستوى الجماعة وأن المسئول عن هذه الثورة هم صيادو البحر الذين تمركزوا حول البحيرات والمجارى المائية أثناء العصر المتوسط إذ أن صيد الأسماك كان يمثل مورداً غذائياً ثانياً على مدار السنة ، وأن المنطقة الملائمة لتكون مهداً للزراعة هى جنوب شرق آسيا.

أما البعض الآخر فرأى أن الزراعة كانت ضرورة اقتضتها تغير الظروف المناخية فى جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا بعد انتهاء العصر المطير فى الزمن الرابع إذ ترتب على قلة المطر وندوته أن نقص الغطاء النباتى والمروج الخضراء التى كانت سائدة فى تلك المناطق التى تحولت تدريجياً إلى مناطق صحراوية . ومن ثم كان على الإنسان والحيوان فى هذه الجهات أن يتجه إلى أماكن تجمع الماء حول العيون والآبار فى بطون الأودية . أى أن الزراعة كانت ممكنة فقط فى تلك الواحات المتناثرة فى الصحراء أو فى مجارى الأنهار القليلة كنهري النيل الأدنى ونهرى دجلة والفرات.

على أى حال مهما كان الاختلاف حول الظروف التى أحاطت بقيام الثورة الإنتاجية فإنه من الثابت أن الدعامة الأساسية لهذه الثورة كان معرفة الزراعة وممارستها ، واستئناس الحيوان واستغلاله ، والارتباط بالأرض والانتفاع بمواردها وبناء المساكن ، والإحساس بالحيرة والشعور بالمشاركة ، فالزراعة ربطت الإنسان بالتربة ومن ثم كانت المحافظة على النبات والأرض هو الشيء الذى لا بد أن يضمن فى المكان الأول .

وقد كانت المرأة تبعاً لدورها القديم كجامعة للطعام هى المسؤولة على اختراع وتطور الزراعة ، وأن المرأة ظلت هى الفاتحة للأرض لمدة طويلة وربما كانت هى أيضاً المخترعة لصناعة الأوانى الفخارية وصناعة النسيج حيث بقيت هذه الحرف فى يدها طوال " الثورة الإنتاجية الأولى " أما الرجال فكانت حرفتهم الرئيسية تربية الحيوانات وصناعة الفؤوس الحجرية والعصى المعقوفة وغيرها من الأدوات الثقيلة التى استخدمت فى الحقول ذلك بالإضافة إلى حرفة قطع الأخشاب والتجارة إذا ما وجدت.

المهم فى هذه الثورة أن الإنسان استقر فى قرى ، وارتبط بالأرض التى يزرعها وبدأ ينتج وافر من المحاصيل الذى ساعد على زيادة أعداده.

أما الثورة الثالثة فى تاريخ البشرية فيمكن أن تُطلق عليها "الثورة الإدارية" والتي تتمثل فى تطور النظام الحكومى والإدارى الذى يدعمه وجود قانون . وقد حدثت هذه الثورة منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ق . م فعلى الرغم من أن الإنسان الأول ربما كان لديه نوعاً من النظام القبلى أو بعض القوادى الكلمة المسموعة إلا أن الحضارات الأولى التى نجحت فى إقامة نظام حكومى تسيطر به على مساحة كبيرة من الأرض وجدت فى وادى النيل وعلى ضفاف نهري دجلة والفرات وفى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

وقد اعتمدت الحضارة المصرية على فيضان النيل إذ أن السيطرة على النهر اقتضت وجود سلطة تشرف عليه لتقوم بمهمة بناء الكبارى وشق القنوات وتوزيع المياه وهكذا وبالتدريج تطورت مهمة الحكومة وسنت القوانين وبالتالي أضافت إلى اختصاصها جمع الضرائب وحفظ الأمن وقد أدى سيادة القانون إلى اطمئنان الفلاح ووجود فائض من الطعام يستطيع بيعه الأمر الذى أدى فى النهاية إلى أن يتفرع قطاع من المجتمع لممارسة التجارة وامتهان الفكر والإبداع وكان ذلك بداية لقيام الحياة الحضرية أى نشأة المدن .

الثورة الرابعة : شهدها القرن الثامن عشر إذ أن اختراع الآلة البخارية فى عام 1768م كان بداية لسلسلة من التغيرات التى عرفتها البشرية باسم الثورة الصناعية (Industrial Revolution) فالأول مرة فى التاريخ تمكن الإنسان من استخدام الآلة البخارية فى المصانع ، كما عبرت أول سفينة بخارية المحيط الأطلسى فى عام 1819م وسير أول قطار بخارى فى عام 1825م.

وفى بادئ الأمر كان التغير يسير ببطء ولكن فى أواخر القرن التاسع عشر ظهر أول قطار كهربائى ثم شهد القرن العشرين ظهور السيارات والطائرات والسفن الآلية وقد زاد تقدم وسائل المواصلات فى النصف الثانى من القرن العشرين زيادة هائلة بحيث أمكن استخدام الطاقة الذرية كما نعلم فى الوقت الحاضر فى بعض الأغراض الصناعية

ومصادر القوى الجديدة لم تعمل على زيادة سرعة نقل البضائع والسكان فحسب من مكان لآخر بل ساعدت أيضاً على زيادة كمية البضائع المنقولة فبدون الزيادة الهائلة فى وسائل نقل البضائع لم يكن ميسوراً للمدن الكبيرة الموجودة فى العالم الآن أنه انتشر ونما وتبدو بالصورة التى نشاهدها بها فى وقتنا الحاضر .

الحضارة والبيئة: (Environment) :

حضارة الإنسان جزء من البيئة (Environment) التى يولد فيها الفرد ، وبعبارة أخرى فهى الجزء البيئى الذى صنعه الإنسان . أما الجانب الآخر من البيئة وهو جانب البيئة الطبيعية فيعرف باسم الموطن (Habitat) ومعنى ذلك أن البيئة تشمل كل من الموطن أو المكان الذى يعيش فيه الفرد والحضارة أى أننا نستطيع أن نفهم بوضوح استغلال الإنسان للأرض إذا ما كان التميز بين الموطن والحضارة واضح فى الأذهان وذلك على الرغم من صعوبة التميز فى بعض الحالات فعلى سبيل المثال حينما تتغير التربة من حالتها الطبيعية عن طريق الحرث والتسميد فهل تصبح فى هذه الحالة ضمن الموطن أو الحضارة. وحينما وفد الأوروبيون إلى العالم الجديد واحضروا معهم العربات التى تجرها الخيول وجدوا أن الهنود قد سبقوهم فى اكتشاف أسهل الطرق الطبيعية للسفر لأن نفس المظاهر السطحية التى تجنبها الرجل المرتحل فى سفره تمثل أهمية بالنسبة لاستخدام الحصان والعربة فى السفر ولذا فأول طريق إقامة الأوروبيون لعبور الولايات المتحدة كان إلى جانب الطرق التى سلكها الهنود. وأيضاً حينما شيدت طرق السيارات تبعث نفس الطرق التى أقامها الهنود من قبل .

وقبل منتصف القرن 19م ظهرت وسيلة جديدة للمواصلات بعد اختراعات القطارات البخارية التى لم يكن ميسوراً لها أن تتبع الطرق التى سلكها الهنود لأن قوة الآلة قادرة على تسلق المنحدرات والإنشاءات الحادة. ومن جهة

أخرى لم يكن من الصعب بناء سكك حديدية تعبر المناطق المستنقعية أو بناء الكبارى والأنفاق لتمر فوق الأنهار والمستنقعات وتعبر الجبال وكان نتيجة لذلك أن تبعت السكك الحديدية طرقاً مختلفة عن الطرق التي تسلكها السيارات ونظراً لأن مدناً عديدة أقيمت على طول خطوط السفر القديمة ولم تتمكن خطوط السكك الحديدية من الوصول إليها فقد أقيمت مدناً جديدة عند التقاء طرق السكك الحديدية ، وتبع كل ذلك أن تغيرت معالم السطح الحضارية إلى مظهر جديد مع تطور وسائل النقل .

الخلاصة أن الحضارة شئ مكتسب لا يورث ، وأن الإنسان يتعلم تبعاً لطرق الحضارة التي ينشأ فيها، وان التغير الذى حدث فى تاريخ الإنسانية تم فى فترات قصيرة لأسباب طارئة وبدون مقدمات ولذا تسمى الفترات التي عاصرت هذا التغير باسم الثورات . وقد كانت الثورة الإنتاجية الأولى نقطة تحول فى تاريخ الإنسان لأنها جعلته لأول مرة منتجاً للقوت بعد أن كان مجرد مستهلكاً له. وقد تبعت هذه الثورة ثورات أخرى غيرت من اقتصاديات الشعوب وطرق عيشها ومن ثم فالفرق بين الحضارات البسيطة والمعقدة أصبح يرتكز على تعدد طريق العيش وتنوعها وعلى الحفاظ على الموارد الطبيعية والتي يعتبر حسن استغلالها أمر ضرورى لبقاء الحضارة وازدهارها.

الفصل الرابع

البشريين النمو والتركيب والتوزيع

(جغرافية السكان)

تعد جغرافية السكان أهم فروع الجغرافيا البشرية، التي تدرس العلاقات المتعددة القائمة بين الإنسان وبيئته، والسكان هم المحور الرئيسي، الذي تدور حوله، ومن خلاله، كثير من العلوم في شتى المجالات سواء كانت علوماً إنسانية أو تطبيقية.

وتوجد تعاريف عديدة لمفهوم ومجال جغرافية السكان وتختلف باختلاف المدارس والزمان والمكان ولكن جميعها تتفق بأنها دراسة الغطاء البشري لسطح الأرض والتأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة الطبيعية فالجغرافي الأمريكي تريوارثا (Trewartha) يرى بأن مضمون جغرافية السكان تركز على فهم التباينات الإقليمية في الغطاء السكاني للأرض والعوامل المؤثرة في هذا الغطاء. والجغرافية الفرنسية بيجو جارنييه (Beaujeu Garnier J.) ترى بأن جغرافية السكان هي دراسة الحقائق والخصائص الديموغرافية في بيئتها وهي بهذا لا تختلف عن زميلها الجغرافي الفرنسي (P. George) المختص في الدراسات السكانية الذي يركز على أحداث الإنسان في البيئة ليؤكد قدرة الإنسان على التأثير في الوسط الطبيعي والتغلب عليه لتلبية احتياجاته ورغباته.

ويعرف محمد السيد غلاب جغرافية السكان بأنها دراسة الكتل البشرية وتوزعها على سطح الأرض وتطور هذا التوزيع حسب الأقاليم من حيث العدد والتركيب والحركة والنمو وعلاقتها بالبيئة الطبيعية والبشرية والاجتماعية. أما فتحي أبو عيانة يقول بأن جغرافية السكان هي ذلك الفرع من الجغرافيا البشرية الذي يعالج الاختلافات المكانية للخصائص الديموغرافية للمجتمعات السكانية والنتائج الاقتصادية الاجتماعية الناجمة عن التفاعل المرتبط بينها وبين الظروف الجغرافية القائمة في وحدة مساحية معينة ومن فحص مختلف مفاهيم ومجال جغرافية السكان يتضح أن جغرافية السكان تهتم بتوزيع وتطور توزيع السكان عبر المجال والزمان لتحديد كثافة الثقل السكاني حسب الأمكنة ومعرفة مدى التناسب بين السكان والأرض للوقوف على ضوابط توزيع السكان وتحركاتهم الطبيعية والميكانيكية التي تعمل على تغير السكان وتخلق نمط معين من التركيبي النوعي والعمرى كما تهتم جغرافية السكان بالتركيب الاقتصادي والاجتماعي وعلاقتها بحركة ونمو السكان .

يستخدم مفهوم السكان بمعنى أكثر شمولاً واتساعاً لأنهم لم يقصروه على جوانب محددة من السكان وبخاصة الخصوبة العالية ومعدلات النمو وإنما أضافوا له جوانب أخرى كثيرة مثل الوفيات والاختلاف في معدلاتها والصحة ومعدل الإصابة بالمرض وأيضاً جوانب تكوين السكان بما في ذلك التكوين العمري ودرجة التجانس أو عدم التجانس في السكان من أنواع العرق والجنس والثقافة والدين وأيضاً جوانب توزيع السكان الإقليمي والحضري والريفي والعواصم وغير العواصم ويدخل ضمن توزيع السكان عمليات الهجرة الدولية والداخلية بما في ذلك خصائص المهاجرين وأيضاً الموروثات الاجتماعية والتكوينية

ويعد علم السكان Demography واحداً من العلوم الاجتماعية التي تُعنى بقضايا المجتمع الإنساني ومشكلاته وتغييراته، ويختص بمسائل السكان وعوامل نموهم وتوازنهم النوعي والكمي، وتتأثر مفاهيمه وتعريفه بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تشهدها المجتمعات الإنسانية المعاصرة، كما تختلف النظرة إليه وإلى الدراسات المنبثقة عنه باختلاف الفلسفات الاجتماعية والسياسية، إضافة إلى أن مسارات علم السكان تأثرت أيضاً بتطور المعارف العلمية في المجالات المختلفة، وقد أطلق الباحثون الأوائل على علمهم صفات عدة .

وليس من السهل معرفة الظاهرة الديموغرافية بكامل الدقة وبكيفية مستمرة ذلك انها تهم عدداً كبيراً من البشر كما أنها تتميز بكونها متغيرة في الزمان والمكان فلإحاطة بهذه الظاهرة يحتاج الى تحضير مادي واستعداد بشري ودراسات متعددة و متواصلة و ظروف سياسية ملائمة من هنا يأخذ وصف الظاهرة الديموغرافية أهميته الكبرى لان هذا الوصف يهتم بدراسة أحوال المجتمعات البشرية في وقت معين من خلال الطرق و الوسائل المباشرة التي

تمكن من استخراج المعلومات الديموغرافية ومع ذلك فاستعمالها مازال يطرح بعض المشاكل للدول النامية.

وتتناول الدراسات الجغرافية للسكان عبر ثلاثة محاور رئيسية، هي: (1) نمو السكان (2) توزيع السكان (3) تركيب السكان (العمرى، والنوعى، والاقتصادى، والدينى، والتعليمى....)، والأساس فى هذه الدراسة هو العلاقات المكانية التى تميز جغرافية السكان عن الديموجرافيا Demography⁽¹⁾، ذلك العلم الذى يتناول السكان رقمياً بوصفه موضوعاً مستقلاً عن البيئة. كما يهتم بالتأريخ الكمي للسكان من مختلف النواحي، سواء الطبيعية منها أم المجتمعية، وهذا يعنى أن من مهام الديموجرافية دراسة السكان من حيث الحجم والنمو والتطور، ومن حيث بنية السكان الطبيعية والمكانية والاجتماعية والاقتصادية، بما فى ذلك دراسة توزع السكان الجغرافى وتركيبهم العمرى والجنسى أو النوعى، كما يتضمن، أيضاً، تتبع هذا العلم لواقعات المواليد والوفيات والهجرة والزواج، ودراسة أنشطة السكان الاقتصادية المختلفة.

كما يؤكد تعريف جيلارد للديموجرافية ارتباط الدراسات السكانية الكيفية (أو النوعية) بالدراسات الإحصائية (الكمية) أو الرقمية، فالديموجرافية، وفق هذا التصور، هى دراسة سكانية تعتمد بالدرجة الأولى على البيانات الكمية فى وصف الواقع السكانى وتحليله وتفسيره.

(1) الديموجرافيا Demography: لفظ يونانى الأصل مؤلف من شقين هما: Demos ويعنى الشعب أو السكان، وgraphs ويعنى الوصف، وبهذا يصبح المعنى الحرفى الكلى لهذا المصطلح وصف السكان أو الدراسة الوصفية لهم. ويعتقد أن آشيل جيلارد A. Guillard هو أول من استعمل هذا اللفظ وذلك فى عام 1855 فى كتابه «مبادئ الإحصاء البشرى»، وقد عرّفها جيار بأنها التاريخ الطبيعى والاجتماعى للجنس البشرى، فهى دراسة عددية للسكان وتحركاتهم العامة وظروفهم الطبيعية وأحوالهم المدنية وصفاتهم العقلية والأخلاقية.

وارتباط علم السكان (أو الديموغرافيا) بالرقم الإحصائي وبعلم الإحصاء بصورة عامة، مسألة أكدها معظم المهتمين بعلم السكان، لهذا فإنه ليس من المستغرب أن يدخل هذا التأكيد على الربط ما بين علم السكان وعلم الإحصاء في تعريف الديموغرافية، وهذا ما ذهب إليه اميل لوفاسور E.Levasseur في تعريفه لهذا المفهوم: أنها علم يعتمد على الإحصاء فيبحث في الحياة البشرية، ولاسيما الولادة والزواج والموت، والعلائق الناشئة من هذه الظواهر، وأحوال السكان العامة الناجمة عن ذلك، وهو يبرز العناصر الصميمة التي يتألف السكان منها وكيف تستقر المجتمعات البشرية وتستمر وتتكاثر أو تتناقص وكيف يتجمع البشر أو يتفرقون، وما أسباب هذا التغير المادي والمعنوي.

ويعرف القاموس الديموغرافي لهيئة الأمم المتحدة الديموغرافية بأنها: «دراسة علمية للجنس البشري من حيث حجمه وتركيبه وما يحدث فيهما من تطور». وواضح أن هذا التعريف على الرغم من شموله لأهم مجالات الدراسة السكانية، فإنه يميل إلى وجهة النظر التي ترى في الديموغرافية مجرد وصف للعمليات والظواهر السكانية المباشرة، في حين تهتم بالكشف والتفسير (أو التحليل) والتنبؤ أو التحكم بالظواهر والعمليات السكانية.

وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات بين العلمين (جغرافية السكان وعلم الديموجرافيا) إلا أن موضوع دراستهم واحد وهو (السكان) ففي الوقت الذي يهتم فيه الديموجرافي بالأرقام معتمداً على الطرق الرياضية والإحصائية فإن الباحث الجغرافي يربط هذه الأرقام بالبيئة الجغرافية معتمداً في تحليله على خرائط التوزيعات .

هناك علاقة تكاملية بين العلمين ؛ حيث يتناول كل منهما الظاهرة السكانية ،فالديموجرافيا تهتم بالجانب الرقمي والجغرافيا تهتم بالجانب التحليلي بهدف تحديد الإطار المكاني الصحيح وتوضيح مختلف العوامل التي تحكم علاقات السكان داخل هذا الإطار .

ومن ملامح الارتباط بين الجغرافيا والديموغرافيا دراسة التطور السكاني والعوامل الرئيسية التي أسهمت فيه ثم تحديد مراحل هذا النمو وارتباطها بالظروف الجغرافية السائدة التي تؤثر في توزيع السكان تركزاً وتشتتاً وتعد دراسة الهجرة السكانية من أبرز ملامح الارتباط بين العلمين؛ ذلك لأن الهجرة ظاهرة ديموغرافية تتحكم فيها مجموعة من العوامل التي تتطلب في تحليلها أساساً إحصائياً وفي تحليلها أساساً جغرافياً تفسر من خلاله أسباب الوفود ودوافع النزوح .

ومن مظاهر العلاقة والارتباط بينها كذلك دراسة مستقبل السكان وتخطيط مواردهم ، ويعد الجغرافي من أقدر الباحثين في مجال التخطيط معتمداً في ذلك على دراسة الظروف التي تؤدي الى توافر عوامل الجذب والطرده في حركة السكان لشدة العلاقة ومثانتها بين العلمين أطلق بعض الباحثين على جغرافية السكان (الجغرافية الديموغرافية).

والإحصاءات السكانية هي عبارة عن أرقام وبيانات تستعمل لتحليل الظاهرة الديموغرافية زمنياً و مكانياً واعتماداً على هذه البيانات يمكن للدارس البحث عن الأسباب والعوامل المتحركة في تطور السكان و ديناميكته. تعتبر ظاهرة المواليد العامل الرئيسي في زيادة عدد السكان وللحكم على هذه الظاهرة نلجأ الى مجموعة من المقاييس:

(1) نسبة المواليد: وتعبر عن العلاقة بين عدد المواليد و عدد السكان خلال السنة و بعبارة أخرى فهذه النسبة تعبر بكيفية رقمية عن عدد المواليد لكل ألف من السكان .و انطلاقاً من هذه النسبة يمكن التوصل الى عدد الأطفال الذين تنجبهم المرأة التي في سن الإنجاب.و تتأثر نسبة المواليد بعدة عوامل أهمها الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والسياسية و الدينية . و ارتفاع نسبة المواليد في الدول النامية يعود الى عوامل متعددة منها:ارتفاع نسبة عدد الاشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 20و40 سنة. وعدم الأخذ بسياسة تحديد

النسل. قلة العزوبة والزواج المبكر بالنسبة للمرأة و كذا التقدم الطبي الذي ساعد على مقاومة الامراض المؤدية الى ضعف الخصوبة تم تأثير الديانات أو التقاليد التي تشجع على التناسل.

أما انخفاض نسبة المواليد في الدول المتقدمة كما في فرنسا وألمانيا فراجع الى نهج سياسة تحديد النسل و ارتفاع قيمة الطفل و شيخوخة الساكنة الفرنسية والألمانية ثم ارتفاع تكاليف الحياة مما أدى الى ضرورة التخفيض من عدد المواليد.

(2) نسبة الخصوبة العامة: تعبر هذه النسبة عن العلاقة بين عدد المواليد الأحياء و عدد النساء في سن الانجاب و فترة الإنجاب الممتدة من 12 سنة الى 50 سنة أي على امتداد 38 سنة وتتوصل اليها بالمعادلة التالية: نسبة الخصوبة العامة = عدد المواليد الأحياء ÷ عدد الإناث في سن الحمل × 100 - الخصوبة الخاصة: تعبر عن العلاقة بين عدد المواليد حسب فئات أعمار الأمهات وهي أدق من نسبة الخصوبة العامة لأن عدد المواليد يختلف حسب أعمار الإناث وتتوصل اليها بالمعادلة التالية:

نسبة الخصوبة الخاصة = عدد المواليد الأحياء لفئة عمرية من النساء ÷ عدد الإناث في نفس الفئة العمرية × 100

(3) معدل الخصوبة لكل امرأة: وهو متوسط عدد الأطفال الذي تتجبه المرأة الواحدة خلال فترتها الإنجابية وهذا المقياس هو الذي يستعمل غالباً في الاحصائيات الرسمية لأنه أكثر تعبيراً عن مستوى الخصوبة في مختلف دول العالم

(4) اختلاف الخصوبة حسب الشعوب: اذا أردنا المقارنة بين الدول المتقدمة والدول النامية سنجد اختلافاً ناتجاً عن اختلاف التقاليد و العادات و الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتحكمة في العوامل المباشرة المؤثرة في الخصوبة

كس المرأة عند الزواج و الرغبة في الانجاب. فالمرأة المتعلمة تتأخر في الزواج كما أنها تميل الى الحد من عدد المواليد.

(5) نسبة التعويض الديموغرافي: وهي عدد الإناث الذي تنتجه المرأة الواحدة في الفترة الممتدة من 12 الى 50 سنة. وتختلف هذه النسبة من بلد لآخر و يعبر هذا الاختلاف عن اختلاف الظروف الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية للسكان ففي الدول المنامية تتراوح النسبة بين 2.2 و 3.1 % وفي الدول المتقدمة تتراوح بين 0.6 و 0.9 % وهذه النسبة جد مهمة في الدراسات الديموغرافية لأنها تمكن من طرح بعض التوقعات بتعويض السكان في المستقبل. فإذا كانت هذه النسبة تفوق 1 % فذلك يعني أن هناك إمكانية التعويض و التجديد و إذا كانت أقل من 1 % فذلك يعني أن إمكانية التعويض ضعيفة.

- الوفيات: الوفاة حدث حتمي يضع نهاية لجميع المخلوقات و يصيب الانسان في أعمار مختلفة و أهم ما يميزها هو الغموض الذي يحيط بها و خاصة في بداية الحياة و تعتبر الوفاة إحدى الظواهر الديموغرافية المعقدة والمتحكمة في الديناميكية الديموغرافية و تطور حجم السكان.

- مقاييس الوفيات:

(1) نسبة الوفيات العامة: تدل على العلاقة بين عدد الوفيات في سنة معينة و مجموع السكان في نفس السنة. ومعادلة قياس نسبة الوفيات العامة هي: عدد

الوفيات خلال السنة ÷ مجموع عدد السكان في نفس السنة × 1000. نسبة

(2) وفيات الاطفال: لهذه النسبة عدة مزايا اذ توضح مستوى الوفيات في مجتمع معين خلال السنة غير أن النسبة لا تميز بين الفئات السكانية المكونة للمجتمع فالسكان ليسوا متساوين أمام الوفاة فهناك اختلاف حسب السن والطبيعة و العمل و حسب الطبقة الاجتماعية.

(3) نسبة الوفيات حسب الأعمار و تعتبر من أهم مقاييس الوفيات و تعبر عن العلاقة بين عدد الوفيات في فئة عمرية معينة و عدد السكان في نفس الفئة

العمرية. ومعادلة حساب هذه النسبة كالتالي: نسبة الوفيات حسب الأعمار = عدد الوفيات في فئة عمرية معينة خلال السنة ÷ عدد السكان في نفس الفئة العمرية في نفس السنة × 1000.

وتتجلى أهمية هذه النسبة في معرفة مستوى الوفيات حسب كل فئة عمرية و تساعد على وضع ما يسمى بلوائح الوفيات و تعطي فكرة عن التطور الذي تعرفه الوفيات والذي يحول الى رسم بياني يسمى المنحنى العمري للوفيات .

(4) أمد الحياة و هو السن الذي يمكن أن يعيشه الإنسان في مجتمع معين و يصل في بعض الدول المتقدمة الى 79 سنة للرجال و 86 للنساء وفي مصر 75 للرجال 77 للنساء وفي المغرب 68 للرجال و 72 للنساء بينما لا يتعدى 40 سنة في بعض دول أفريقيا السوداء مثل أنغولا وبعض دول آسيا كأفغانستان 42 سنة. وتعتمد الدراسات السكانية في دراستها على مجموعة من المصادر الإحصائية المختلفة ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى مجموعتين رئيسيتين:

أولاً-مصادر البيانات الثابتة :

(أ) التعداد Census⁽¹⁾.

يعتبر المصدر الاساسي و الجامع لكل المعطيات السكانية المستعملة من طرف الباحثين والمهتمين لأنه لا يدلنا على الأهمية الرقمية للسكان فقط بل يعطي بيانات تتعلق بمواضيع متعددة تخص المجال الاقتصادي والاجتماعي وميدان الاسكان و كل المجالات التي يجمعها قاسم مشترك وهو الانسان فهو

(1) التعداد: هو العملية الكلية لجمع، وتجهيز، وتقويم، وتحليل، ونشر البيانات الديموجرافية والاقتصادية، والاجتماعية المتعلقة بكل الأفراد في قُطر معين وزمن محدد. ويتم التعداد بصورة دورية لا سنوية. وعُرف التعداد في الأزمنة القديمة، في مصر الفرعونية والدولة الرومانية، إلا أن أقدم تعداد في العصر الحديث قد أُخذ في إسكنديناوه وبعض الولايات الإيطالية والألمانية خلال القرن الثامن عشر، فقد أخذ أول تعداد في آيسلندا عام 1703م، والسويد عام 1749م، والنرويج عام 1760م، والدانمارك = عام 1769م، وأسبانيا عام 1787م، وفي الولايات المتحدة الأمريكية عام 1790م، وبريطانيا عام 1801م، وفي مصر عام 1882م.

يعتبر من اقدم العمليات الاحصائية بهدف اتخاذ تدابير اقتصادية وإدارية مثال الحضارة الصينية و الرومانية التي كانت له أهداف عسكرية أو ضرائبية و أقدم احصاء في العصر الحديث كان بالسويد 1750م و يليه بالنرويج 1769م وفرنسا و انجلترا 1801م و باقي دول أوروبا خلال القرن 19م. وفي مصر تم أول إحصاء عام 1882م ثم توالى بعد ذلك كل عشر سنوات وكان آخر إحصاء عام 2006م وتم أول إحصاء بالمغرب 1921م و فيما بعد بصفة دورية خلال فترة الاستعمار ثم بعد الاستقلالحتى إحصاء عام 2004م .

هذه الاحصاءات التي تقوم على رأس كل 10 سنوات تهدف الى عد السكان وقياس تركيبهم و نسبة تكاثرهم و معرفة توزيعهم الجغرافي الى غير ذلك من المعلومات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية التي تركز عليها العديد من الإجراءات والقرارات الحكومية.

- المسح بالعينة .

أصبح استخدام المسح بالعينة من العوامل المكتملة للتعدادات السكانية في سبيل الحصول على بيانات توضح كل أو بعض خصائص السكان وتستخدم على المستويين القومي والمحلي لهذا الغرض وتصمم العينة للحصول على بيانات تطبق على المجتمع السكاني بأكمله ولتحقيق ذلك فأنها يجب أن تسحب طبقاً لقواعد محددة ودقيقة دون أن يكون فيها تحيز من أي نوع ، و اذا ما اتبعت قواعد المعاينة أمانة ودقة فإن العينة حينئذ تكون ممثلة لاجمالي السكان.

- الطرق غير المباشرة: تتمثل في بعض الوثائق الإدارية كسجلات الحالة المدنية و التصريح بالولادات و الوفيات و بيانات التوزيع المهني للسكان و بيانات عملية رسوم الزواج و الطلاق وغيرهما من الوثائق التي لها علاقة بالسكان .

وهناك بعض المشاكل الخاصة مرتبطة بالدول النامية تلك المشاكل التي لا تسمح بالاستفادة التامة من الطرق و الوسائل المستعملة في التعرف على الظاهرة الديموغرافية لمجموعة من الأسباب منها قلة الأموال الضرورية للقيام بهذه العمليات والافتقار الى العدد الكافي من الباحثين المتخصصين في ميدان الاحصاء. وانعدام سجلات الحالة المدنية التي تستعمل غالباً كمنطلق لعملية الاحصاء. و جهل السكان لأهمية الاحصاء ما يجعل البيانات المستخرجة غير مطابقة أحياناً للواقع.

ثانياً:- مصادر البيانات غير الثابتة:

أ- الإحصاءات الحيوية Vital Statistics

تعتمد العوامل المؤثرة في حجم السكان، إضافة إلى التعداد، على بيانات الإحصاءات الحيوية للسكان، التي تقوم على التسجيل الحيوي، الذي يشمل تسجيل المواليد، والوفيات، والزواج، والطلاق.

وإضافة إلى المصدرين السابقين، هناك سجلات الهجرة، التي تقوم بها نقط الجمارك والجوازات والجنسية في الموانئ، والمطارات، وأماكن العبور، ومن خلالها يمكن تتبع تدفق المهاجرين من القطر وإليه سنة بعد أخرى. وتضاف أعداد المهاجرين إلى أعداد السكان المواطنين وتعرف بالزيادة غير الطبيعية⁽²⁾.
2- سجلات الهجرة.

تعد بيانات أقل قيمة من بيانات الإحصاءات الحيوية لعدة أسباب منها تعريف المهاجر يختلف من مكان لآخر أحياناً كذلك قد يكون التصنيف القائم على مدة الهجرة والمسافة التي يقطعها المهاجر.

وتتوفر بيانات الهجرة الدولية لدى كثير من دول العالم حيث تقوم الجمارك والجوازات والجنسية في الموانئ والمطارات وأماكن العبور ومن خلالها يمكن

(2) الزيادة الطبيعية هي الفرق بين المواليد والوفيات.

تتبع تدفق المهاجرين من وإلى البلد سنة بعد أخرى بما في ذلك التقلبات التي تحدث استجابةً للظروف الاقتصادية والسياسية.

كثافة السكان :

جرت العادة على اعتبار كثافة السكان مجرد نسبة عدد السكان فى بقعة ما الى مساحة هذه البقعة ، غير أن المدلول الجغرافى لهذه الكثافة البسيطة محدود القيمة علمياً وذلك لتفاوت الأهمية الاقتصادية فى بعض الأحيان فى المناطق الواحدة التى يكون بعضها مستقبلياً ، ولآخر غير مستقبلياً ولما كانت الكثافة السكانية تعتبر مقياساً لمدى استجابة الإنسان للبيئة التى يسكنها ومقدار التفاعل بينهما ، إلى جانب إمكانية استخدامها كمؤشر لقياس مستوى المعيشة ودرجة تشبع المنطقة بالسكان .

وقد تدرج الباحثون فى دراستهم لكثافة السكان حتى توصلوا الى تصنيفها على أسس أربعة هى :

1- الكثافة الحسابية :

ويقدر بها الكثافة البسيطة المعروفة وهى نسبة عدد السكان الى مساحة الأرض التى يعيشون عليها بصرف النظر عن الإمكانيات الاقتصادية لهذه الأرض ومقدرتها الإنتاجية ، وبصرف النظر عن نمط الاستقلال الاقتصادى بها .

وباستخدام هذه الطريقة فى حساب الكثافة السكانية فى العالم نجد متوسطها يصل الى 21 نسمة /كم² .

وإذا كان سكان مصر قد بلغوا 85 مليون نسمة فإن الكثافة الحسابية لمصر تصل الى 85 نسمة فى الكيلومتر المربع .

2- الكثافة الفسيولوجية :

وهى نسبة عدد السكان الى مساحة الأرض المستثمرة اقتصادياً ، ومعنى هذا أن يستبعد من حساب هذه الكثافة الأراضى الصحراوية والأراضى البور التى

لم تشتغل بها أى أنها لا تناسب السكان الى الأرض ، بل نضع فى اعتبارنا الوظيفة التى تؤديها الأرض .
وعلى سبيل المثال تبلغ مساحة الأرض المستثمرة فى مصر وحدها حوالى ألف كم² من جملة مساحتها مليون كم² .
وبذلك ترتفع الكثافة الفزيولوجية لمصر الى حوالى 2500 نسمة/ كم² تزيد بمقدار 30 مرة على الكثافة الحسابية لها .

3- الكثافة الزراعية :

يشيع استخدام هذا النوع من الكثافة على وجه الخصوص فى البلاد الزراعية وهى تحسب بنسبة عدد السكان المشتغلين بالزراعة وحدهم الى مساحة الأرض الزراعية دون غيرها .

ومعنى هذا أننا ندخل فى الاعتبار عند حساب هذه الكثافة وظيفة السكان فضلاً عن وظيفة الأرض ، ومن الطبيعى أن تزيد هذه الكثافة فى البلاد التى يشتغل معظم سكانها بالزراعة كمصر والهند والصين .

أما فى البلاد التى لا يعمل فى الزراعة بها سوى نسبة صغيرة من سكانها فتتخفف فيها الكثافة الزراعية .ففى مصر مثلاً تبلغ الكثافة الزراعية حوالى 600 نسمة / كم² .

بينما فى بريطانيا التى لا يشغل بالزراعة سوى 5 % فقط من عدد سكانها ومن ثم لا تزيد الكثافة الزراعية بها عن 80 نسمة / كم² .والكثافة الزراعية تعطى فكرة صادقة على العلاقة بين الأيدى العاملة الزراعية والأرض الزراعية ، وبمعنى آخر فهى مقياساً سليماً لقياس العمل .

4- الكثافة الاقتصادية العامة :

ولما كانت الأنواع الثلاثة السابقة من الكثافات مازالت عاجزة عن أن تمدنا بمقياس احصائى دقيق للعلاقة بين السكان والموارد الاقتصادية التى لن تدخل فى اعتبارها المقدرة الإنتاجية للأرض .

لذلك حاول بعض الباحثين ابتكار نوع رابع من الكثافات يعرف بالكثافة الاقتصادية العامة. وليس من السهل الوصول الى طريقة لحساب المقدرة الإنتاجية للدولة الواحدة ، خصوصاً في البلاد الصناعية والتجارية التي لا تعتمد اعتماداً مباشراً في إنتاجها الاقتصادي على الأرض .

وعند حساب هذه الكثافة الزراعية يتطلب الأمر أن نضع في اعتبارنا ضوابط الإنتاج الزراعي التي أهمها درجة خصوبة التربة ومدى توافر الماء .
بذلك كله لم يستقر الباحثون على طريقة لحساب الكثافة الاقتصادية العامة التي بين الإنسان والموارد الاقتصادية .

ونظراً لعدم توافر بيانات إحصائية كاملة تمكن من توزيع الكثافات الثلاثة الأخيرة على خريطة العالم التي تمكنه من إجراء الدراسات المقارنة ، لذلك فإن أغلب الدراسات التي تبحث في توزيع الكثافة للعالم تعتمد فقط على الكثافة الحسابية البسيطة برغم أنها من قصور في المدلول الذي يصل الى حد التقليل في بعض الأحيان .

- العوامل المؤثرة في انتشار الإنسان :

يمكن تقسيم العوامل التي أثرت في انتشار الإنسان إلى مجموعتين تشمل الأولى منها العوامل الطبيعية التي لا مفر من تأثيرها على الأنماط المختلفة لتوزيع الإنسان والتي في نفس الوقت من الممكن تعديلها لملائمة أنماط الحياة الجديدة.

أما المجموعة الثانية فتشمل العوامل البشرية التي تساهم مع العوامل الأولى في تشكيل الإنسان .

- العوامل الطبيعية :

من بين العوامل الطبيعية الرئيسية التي أثرت في انتشار المجموعات البشرية وجود الكتل الجبلية وتوزيع المناطق الصحراوية والأقاليم الحارة الرطبة وموارد المياه ولا يقتصر الأمر على أثر هذه العوامل في انتشار وتوزيع

الإنسان بل أيضاً لها تأثير على تكوين جسم الإنسان ، وعلى نوع الحياة النباتية والحيوانية وإمكانية الاستغلال الاقتصادية فى المنطقة ونوع وسائل النقل وغيرها من الأشياء التى تؤثر على نشاط الإنسان وحرافته بصفة عامة .
تأثير العوامل الطبيعية على جسم الإنسان :

من المفترض أن الإنسان يستطيع أن يتلاءم مع بيئته الطبيعية وربما خير دليل على ذلك توزيع المجموعات السكانية الكبرى فى العالم الذى هو نتيجة لعملية ملائمة استمرت آلاف السنين ، فالمجموعات الزنجية استقرت فى المناطق المدارية والأقاليم الحارة على حين لاءت المجموعات القوقازية حياتها للمعيشة فى الأقاليم المعتدلة ومن ثم فسكان المناطق الحارة أقدر من الزوج على المعيشة فى بلدان يتصف مناخها بالبرودة فى نفس الوقت تساعد الحبيبات الملونة الكثيفة الموجودة لدى الزوج على مقاومة أشعة الشمس المحرقة فى مناخ استقرارهم. هذه الملائمة حددت إلى حد ما مناطق انتشار كل مجموعة جنسية.
الإنسان والعروض العليا :

لعل من أكثر العوامل الطبيعية التى أثرت فى انتشار الإنسان البرودة ولاسيما إذا ما انخفضت درجة الحرارة انخفاضاً كبيراً بصفة دائمة أو فصلية ، كما أنها تؤثر على فصل النباتات لأن النباتات تفضل الفصول الدفينة لازدهارها وتذبل وتموت مع شدة البرد . وفى نصف الكرة الجنوبي خارج قارة أنتاركتيكا(القارة القطبية الجنوبية) نجد أن أقصى طرف أمريكا الجنوبية هى المنطقة الوحيدة التى تتصف ببيئة العروض العليا، وفى كل هذه المناطق بالإضافة إلى المناطق الباردة الشمالية لا يمثل البرد العامل الوحيد الذى يحد انتشار الإنسان بل أن طول الليل وضعف الأشعة الشمسية مسئولة عن فقر السكان الأصليين وقلت مواردهم ونقص الفيتامينات التى تؤثر فى نموهم وتكاثرهم ، فهذه العوامل مسئولة أكثر من الحرارة عن انخفاض نسبة الخصوبة لدى بعض الجماعات القطبية .

الإنسان والمناطق الجبلية :

تأثير الارتفاع على الإنسان أمر أكثر تعقيداً من تأثير البرودة عليه ففي المناطق المناخية تلعب التضاريس دوراً مهماً فى اختلاف وتدرج المناخ وذلك إلى جانب أثرها على النشاط البشرى فعلى سبيل المثال إذا ما كان هناك سلسلة من المرتفعات شديدة الانحدار تتميز بوجود صخور عالية مثل هذه المرتفعات - بغض النظر عن ارتفاعها - تعوق النشاط البشرى كما تعوق انتشاره وخير مثل على ذلك جبال الهيمالايا وكيف جعلت من شبه القارة الهندية صندوق مقفل. وعلى النقيض من المناطق الجبلية سهول الأودية المتسعة أو الأحواض المفتوحة إذ أن إمكانيات الاستغلال والانتشار فى المناطق الأخيرة سهلة وميسرة . فعلى سبيل المثال كان وادى النيل طريقاً لانتشار الهجرات القادمة من جنوب غرب آسيا إلى السودان وأواسط أفريقيا كما كان حوض نهر الدانوب الطريق الطبيعى للهجرات التى وفدت من وسط آسيا إلى القارة الأوروبية .

ويظهر أثر عامل الارتفاع بوضوح على تغير الضغط إلى يؤثر بدوره على الإنسان فدوار الجبال أمر معروف لكثير من الناس الذين يتسلقون الجبال إلى ارتفاع 6000 قدم. وقد يؤدي هذا الدوار إلى الموت على ارتفاع 25 ألف قدم. أما عن سكان الجبال فى أودية الهيمالايا أو فى الهضاب المرتفعة فقد تأقلموا على المعيشة على ارتفاع 12 ألف قدم أو 16 ألف قدم هو الحال فى البيرو ولكن الارتفاع فى حد ذاته عامل محدود إذ يصاحبه عوامل أخرى مثل فقر الموارد التى تشمل حياة الإنسان قبل أن يأتى أثر الارتفاع.

وفى المناطق الاستوائية والمدارية نجد للجبال أثر ملطف على المناخ إذ يتحول بفضل الارتفاع إلى مناخ معتدل أو بارد ومن ثم تجتذب هذه الأماكن السكان للاستقرار بها. ففي كولومبيا سلاسل الأنديز على ارتفاع 10 آلاف قدم وما يقرب 98% سكانها يتركزون حولها فى حين تصل فى الإكوادور إلى 85% وفى بيرو 62% وفى بوليفيا 75 فى المائة. وفى المناطق الجافة تعتبر الجبال

أيضاً من المناطق المحظوظة لأنها تجذب الأمطار إليها وتقدم مرعى للحيوانات أو إمكانية الأحواض أو المدرجات. وفوق هذا كله فإنها السبب فى المياه المخزونة من السيول الجارفة المحيطة. ووفرة الماء فى المناطق الجبلية تسمح بزراعة الأقاليم المجاورة وأيضاً السهول البعيدة ويمكننا أن ندرك هذه الحقيقة إذا ما تصورنا أن رخاء مصر يرجع إلى الأمطار التى تسقط على مرتفعات الحبشة .

كذلك تقدم الجبال إمكانات لا حصر لها من حيث توليد القوى الكهربائية التى بدورها من الممكن استغلالها فى الري وإقامة أود أعداد كبيرة من السكان كما أنه على أقدام الجبال كثيراً ما تقوم قرى أو مدن بالقرب من موارد المياه أو كمحطة للسفر.

الإنسان والصحراء :

يعتبر نقص الماء من العوامل الطبيعية الهامة التى تؤثر فى توزيع الإنسان ووجوده ويمكن تشبيه الصحراء بالمحيط الذى لا يوجد به ماء والواحات الموجودة بها بالجزر التى يقطنها الإنسان . ونقص الماء مع ارتفاع درجة الحرارة يؤدى إلى الموت إذ من الضروري أن يشرب الإنسان يومياً لتر ونصف من الماء ومن ثم فقد وفتت الصحراء دائماً عقبة فى سبيل انتشار الإنسان.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال انه لا يوجد سكان فى الصحراء إذ أن هناك سكان أعدادهم قليلة وكلهم يتركزون فى مناطق الواحات. وقد تعودوا على الانتقال والارتحال والمقدرة على تحمل العطش وهى صفات اقتضتها ضرورة الملائمة للبيئة الصحراوية . وسكان الصحراء فى صراع مستمر مع ندرة الأمطار فحرفة الرعى جعلتهم يستغلون الأمطار النادرة استغلالاً كاملاً وذلك عن طريق الهجرة على أطراف الصحراء أو بمراقبة العواصف التى يعقبها سقوط المطر.

وفى بعض الأحيان لجأ سكان الصحراء إلى استخدام الزراعة الجافة أو زراعة أنواع من النباتات الصحراوية. ومن ثم فانتشار مراكز تجمع سكان فى الصحراء أمر ممكن غير أنه محدد بوجود المياه وكمياته ذلك إلى جانب العوامل الطبيعية الأخرى والتقدم التكنولوجى .

موارد المياه :

كما سبق أن ذكرنا أن وجود الماء ضرورة حيوية للإنسان إذا ما توفرت استطاع أن يقيم حياة مزدهرة وأن عزت وانتشر وتفرق ،والمياه بصفة عامة يجدها فيتكاثر حولها . ذلك بالإضافة إلى أن المجارى المائية أو المياه بصفة عامة تعتبر وسيلة هامة من وسائل الربط والاتصال بين المجموعات البشرية والدليل على ذلك أى خريطة للسكان حيث نلاحظ أن الكثافات العالية للسكان أكثر فى المناطق الساحلية من المناطق الداخلية .

التربة والتكوين الجيولوجى :

لعبت التربة والتكوين الجيولوجى للأقاليم المختلفة دوراً فعالاً فى اجتذاب السكان إليها ولاسيما إذا ما كان الإقليم متشابهاً فى ظروفه المناخية ومظاهره التضاريسية فالتربات الفيضية التى كونتها الأنهار وتربات اللويس والتربة البركانية كانت دائماً مغناطيسياً بالنسبة للإنسان يتجه نحوها وذلك على النقيض من المناطق الصحراوية والحصوية.

وإلى جانب توزيع التربة يؤثر توزيع الثروة المعدنية المرتبطة بالتكوين الجيولوجى للإقليم وكذلك الموارد الطبيعية الأخرى كالغطاء النباتى والحيوانى فى توزيع السكان وانتشارهم . وهذه الموارد كما نعلم غير موزعة توزيعاً عادلاً فى جميع أنحاء العالم فهناك مناطق غنية بثرائها المعدنى وأخرى فقيرة.

- العوامل البشرية :

إلى جانب العوامل الطبيعية التى تؤثر فى انتشار الإنسان هناك العوامل الاقتصادية التى كثيراً ما تقرر نمو التوزيع السكانى فى منطقة ما . ففى

المجتمعات البدائية أو التي تعتمد على الاقتصاد الطبيعي نجد أن البيئة فقيرة وإمكانياتها محدودة ومن ثم تضطر الجماعات البشرية إلى الهجرة من منطقة لأخرى وذلك نتيجة لاستنزاف موارد المنطقة.

أما الجماعات التي تعتمد على الزراعة وتربية الحيوان أى المجتمعات الريفية فتقوم أساساً على وجود فائض من الطعام ومن ثم فكثيراً ما تكون مناطق جذب للإنسان وليس مناطق طرد لهم اللهم إلا إذا كانت زراعة كثيفة أى أن هناك أعداد كبيرة من السكان تفلح مساحة محدودة من الأرض بحيث لا يكفى إنتاجها حاجتهم كما هو الحال فى بعض أراضى جنوب شرق آسيا حيث يهاجر سكانها إلى مناطق أخرى من العالم .

أثر النقل والمواصلات فى انتشار الإنسان :

كان من نتائج تقدم وسائل المواصلات فى القرن 20 أن أصبح الاتصال بين الجماعات المختلفة سهلاً ميسوراً ومن ثم انتشر السكان فوق مساحة أوسع من الكرة الأرضية فالنقل البحرى ساعد على اكتشاف أراضى جديدة إذ قدم وسائل نقل رخيصة للطرق الطويلة وساعد على تعمير البلاد الحديثة . هذا ما حدث عندما عمرت أمريكا الشمالية بالسكان حيث شيدت الخطوط الحديدية عبر القارة من الشرق إلى الغرب ، وما حدث أيضاً عندما مد خط حديد سيبيريا والخطوط الحديدية الحديثة فى الصين .

ولا يقتصر أثر وسائل النقل على الجانب الاقتصادى فحسب بل لها أيضاً أثراً الحضارى إذ أن المواصلات خلقت حاجات جديدة للمجتمعات.

الصناعة وأثرها على توزيع السكان :

كان من نتيجة تطور وسائل النقل أن أمكن تركيز الصناعة فى أماكن معينة ومن ثم حلت المصانع الكبيرة المتجمعة محل الصناعات الحرفية المحلية المتفرقة. ومع تطور الصناعة واستخدام الفحم انتقلت الصناعات صوب حقول الفحم لتكون قريبة منه ومن ثم لعبت حقول الفحم فى شمال غرب أوروبا دوراً

مهماً فى التطور الصناعى السريع وقد تبع ذلك هجرة المصانع إلى مراكز التعدين والمدن الصناعية ومن ثم فقد وصلت الكثافة السكانية فى المنطقة الممتدة من لانكشير بانجلترا إلى الرور بألمانيا ومن سيليزيا إلى سانت أتين ما يقرب من 1000 شخص/ كم2 وقد حدث نفس الشئ فى منطقة الدونز والأورال بروسيا وفى منطقة جبال الأبالاش بالولايات المتحدة وفى المراكز الأخرى للتركز الصناعى.

هذا ويجب أن نلفت النظر إلى أن الصناعة تشبه الزراعة فى كونها تأثر فى أنماط توزيع السكان وذلك حسب طبيعتها ، فالصناعة الثقيلة تجتذب السكان وذلك على النقيض من بعض الصناعات التى تتوقف على الإستيراد وتزويد إنتاجها من أن لآخر فصناعة الغزل والنسيج والصناعات الميكانيكية والصناعات الخفيفة ترتبط دائماً بمراكز تجمع السكان وكثيراً ما تنشأ فى أماكن غريبة بين المدن على حين لا تحتاج الصناعات التعدينية والكىماوية إلى تشغيل أعداد كبيرة من السكان

كما أن التقدم التكنولوجى فى الصناعة كان له أثره المهم فى توزيع السكان إذ ان استخدام الوسائل الحديثة فى الصناعة ترتب عليه زيادة الإنتاج وقلة الأيدى العاملة .

والخلاصة أن هناك عوامل عديدة ومختلفة أثرت ومازالت تؤثر فى انتشار الإنسان وهجرته . فعلى الرغم من أن الوطن الأسمى للإنسان مسألة فرضية وليست أمراً ثابتاً إلا أنه من المؤكد أن المجموعة الزنجية نشأت فى المناطق الاستوائية على حين تركزت المجموعة القوقازية فى أوروبا وشمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا والمجموعة المغولية فى آسيا. وقد لعبت العوامل الطبيعية والبشرية دوراً متفاوتاً فى عملية انتشار الإنسان وكان الإنسان تأثير الارتفاع على الإنسان أكثر تعقيداً من تأثير البرودة عليه ، كما كان من نتائج

تحسن وسائل المواصلات فى القرن العشرين أن تمكن الإنسان من الانتشار فوق مساحة كبيرة من اليابس .

ومن هذا التوزيع يمكن أن نستخلص الحقائق التالية :

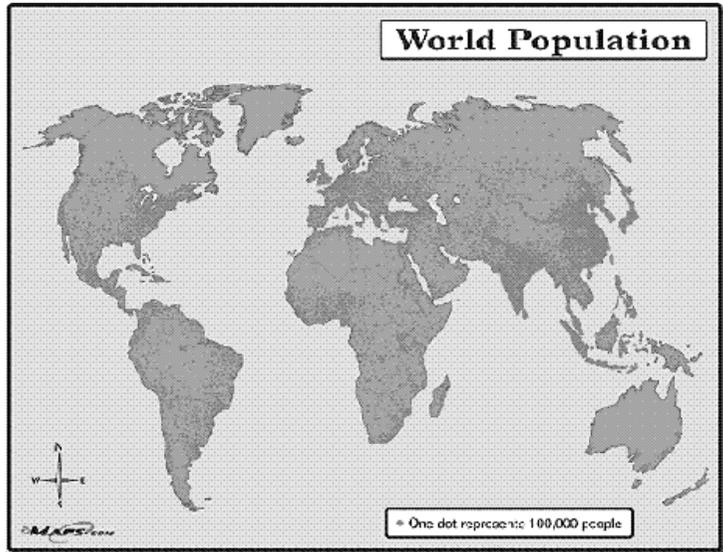
أولاً : أن ما يزيد على نصف سكان العالم يتركزون فى قارة آسيا وحدها على حين تضم قارة أوراسيا التى تضم قارتى آسيا وأوروبا معاً حوالى ثلاثة أرباع سكان العالم .

ثانياً : يحتوى العالم القديم على حوالى 86 % من جملة سكان العالم فى مقابل 14% من جملة سكان العالم يتمركزون فى كل من أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية .

ثالثاً : أن حوالى ثلث سكان العالم يعيشون فى سبع مساحة العالم أى أنه ليس هناك توزيع عادل للسكان بالنسبة لمساحة الجزء المعمر من الأرض .

رابعاً : أن ما يقرب من 5000 مليون نسمة يعيشون فى نصف الكرة الشمالى الذى يتصف بأنه أكثر صلاحية للسكن من نصف الكرة الجنوبى للعالم القديم

والجديد على
السواء وذلك
راجع بطبيعة
الحال إلى
اختلاف
توزيع اليابس
والماء فى
نصف الكرة
الشرقى



والغربى وكذلك فى نصفها الشمالى والجنوبى وسوف نلاحظ أن حوالى 93.5%

من جملة مساحة العالم القديم يقع فى نصف الكرة الشمالى فى مقابل ما يقرب من 72% من جملة المساحة الأمريكتين .

المناطق الرئيسية لتركز السكان :

يوجد ثلاث مناطق لتركز السكان فى العالم وهذه المناطق هى :

(أ) منطقة شرق آسيا وجنوبها الشرقى وعلى وجه التحديد المناطق المجاورة للمحيطين الهادى والهندي والممتدة من شمال الصين صوب الجنوب والجنوب الغربى حتى حدود الهند .

إذا أضفت إلى هذا النطاق شبه القارة الهندية والجزر المجاورة لها ستجد أن ما يقرب من 3000 مليون نسمة أى حوالى نصف سكان العالم يتمركزون فى هذا النطاق .

(ب) النطاق الثانى يضم هذا النطاق 1200 مليون نسمة أو ما يعادل خمس سكان العالم ويشمل أوروبا وروسيا الأوربية .

(ج) النطاق الثالث لتركز السكان فى شرق أمريكا الشمالية ويعيش فى هذا النطاق ما يقرب من 200 مليون نسمة أى ما يوازى 1% من سكان العالم .

ويمكن أن تستخلص من هذا التوزيع أن منطقتين من مناطق التكس السكانى فى العالم تقعان كلية فى المناطق المعتدلة الإستوائية على حين يقع نطاق تركيز السكان الأسيوى فى المناطق المدارية والمناطق الاستوائية فى اندونيسيا وهذه النطاقات الثلاثة تشمل حوالى ثلاثة أرباع سكان العالم .

المناطق الفرعية لتركز السكان :

هذه المناطق أقل عدداً من المناطق الأولى ومن بين هذه المناطق التالية

:

1- جنوب شرق استراليا .

2- الأطراف الغربية للولايات المتحدة الأمريكية .

3- حوض نهر بلاتا بأمريكا الجنوبية .

4- شمال أفريقيا وجنوبها .

ويتركز فى كل المناطق السابقة حوالى 400 مليون نسمة أما عن بقية سكان العالم فيمكن ملاحظة أنهم يعيشون متفرقين خارج المناطق المعتدلة والمدارية التى سبق ذكرها، وهؤلاء ينتشرون فى بعض البقاع الصالحة للاستقرار والمتناثرة على سطح الأرض مثل أحواض المكسيك المرتفعة ، وحول ساو باولو وفى السهول الساحلية الشمالية الشرقية بالبرازيل وأيضاً فى سهولها الشرقية. وفى أفريقيا بوادى النيل وفى بعض المناطق الساحلية على خليج غانة وفى زانزيبار وحول بحيرة فيكتوريا .

فى آسيا هناك منطقة الشرق الأوسط وروسيا الآسيوية والمناطق الساحلية والأودية وحول مناطق التعدين ومراكزه .

وعلى النقيض من مناطق تركيز السكان السابقة توجد مساحات شاسعة

تكاد تكون خالية أو شبه خالية من السكان . ومثل هذه المناطق توجد فى :

1- المناطق القطبية فى أمريكا الشمالية وآسيا وفى اسكنديناوة حول الدائرة القطبية .

2- وسط آسيا إلى شرق من بحر قزوين .

3- فى الصحراء الكبرى وصحراء كلهارى .

4- وسط استراليا .

5- حوض الأمزون فى قلب أمريكا الجنوبية .

6- المناطق الجبلية المنتشرة فى العالم .

الفصل الخامس

مراكز الإستيطان البشرى

(جغرافية العمران)

تتعدد مراكز العمران والتوطن البشرى وتختلف من مكان لآخر حسب طبيعة التوطن والظروف الجغرافية المحيطة به . وعلى الرغم من تعدد أشكال هذا التوطن إلا أن جميع أنماطها سواء كان هذا التوطن فى قرية أو بلدة أو مدينة أو أى محلة عمرانية أخرى يختلف اسمها عن ذلك، تتصف بأن هناك استقرار بشرى وارتباط بين الأرض والإنسان يمنح السكان صفة الاستمرارية فى ممارسة الأنشطة الاقتصادية داخل نطاق المحلة العمرانية التى يستوطنون بها .

مراكز العمران :

وفى مجال دراستنا سنتناول دراسة القرية والمدينة وهما أهم أنماط أو أشكال التوطن و العمران البشرى . ومع أن فكرة المدينة واضحة لدينا جميعاً حيث يمكن إدراكها بالقياس إلى القرية وذلك على الأقل من المظهر الخارجى لكل منهما إلا انه من الصعب وضع تعريف واضح ومحدد لها والسبب فى ذلك تشابه القرية والمدينة أحياناً فى بعض المميزات العمرانية كالمظهر الخارجى أو عدد السكان أو سبب كثرة الاختلافات بين المدن بعضها البعض نتيجة لاختلاف وظائفها .

ولعل أبسط مظاهر التفرقة بين القرية والمدينة هو أن سكان القرى معظمهم من الفلاحين الذين ترتبط حياتهم بالزراعة وتربية الحيوان وخدمة الأرض وهذا على النقيض من المدن التى يشتغل معظم سكانها بحرف أخرى لا تتصل بإنتاج الأرض كالصناعة والتجارة والخدمات العامة .

والمدينة إذن ممكن أن تعرفها من شوارعها المرصوفة ومن منازلها المتناسقة المرتفعة وكذلك من محلاتها التجارية المتنوعة التى تشتمل على محلات كبيرة تضم عديد من السلع بالإضافة إلى وجود الخدمات المختلفة كالكهربا والمياه النقية والمجارى وشبكة من الموصلات أما القرية فهى تجمع للسكان تتلاصق مساكنهم وتتميز بالانخفاض وتقل بها الخدمات المختلفة .

هذه التفرقة يمكن أن تطبقها فى جمهورية مصر العربية وعلى أساسها يمكنك أن تعدد المدن الموجودة ، لكن إذا ما حاولت أن تستخدم هذا المقياس الاجتهادى للتفرقة بين القرية والمدينة فى انجلترا مثلاً أو سويسرا أو أمريكا الشمالية لا تستطيع أن تفرق بين القرية والمدينة لأن القرية الانجليزية تجد شوارعها مرصوفة وتجد منازلها مبنية بطريقة لا تقل من حيث الجودة عن المنازل المبنية فى المدن المصرية.

ومعنى ذلك أن تعريف المدينة قد يختلف من بلد لآخر ومن مكان لآخر ومن ثم فهناك تعاريف مختلفة للمدن يمكن إجمالها فيما يلى:

1- التعريف الإحصائى : ويعتمد على اتخاذ رقم معين من السكان للتفرقة بين القرية والمدينة ولكن ليس الحجم السكانى مقياس العمران المدنى أو الريفى فهناك محلات عمرانية كبيرة فى بعض جهات العالم ولكنها قرى بالمفهوم العام للقرية أى فى مظهرها ووظيفتها . ويلاحظ أن حالة مصر كبلد زراعى بها قرى كبيرة تضم أكثر من 50 ألف نسمة وهذا العدد كفى باعتبار هذه القرى مدناً تبعاً للتعريف الإحصائى للمدن فى الولايات المتحدة وهولندا واليونان وبلجيكا وانجلترا.

2- التعريف الإدارى : كثيراً ما يظهر الفرق بين المدينة والقرية بالتحديد الإدارى فى بعض البلاد الأوروبية كان يصدر مرسوم حكومى يعطى مكاناً معيناً صفة المدينة ويعطى لهذا المكان حقوقاً على المحلات المجاورة كما يفرض عليه واجبات كوظيفة السوق والحصن . وقد انتهت هذه الطريقة مع العصور الوسطى وأصبحت الناحية الإدارية تفرض على المحلة بعد إدراك أهميتها وأهمية موقعها بالنسبة لبيئتها المجاورة .

3- التعريف على أساس المظهر الخارجى : حيث يمكن التعرف على المدينة كما سبق أن ذكرنا من مظهر مبانيها وحجمها وطبيعة شوارعها ومنشأتها المتنوعة .

4- التعريف الوظيفى : وهذا التعريف قائم على أن التفرقة بين المدينة والقرية يعتمد أساساً على وظيفة المحلة ذاتها فمن البديهي أن القرية تعيش للزراعة وعلى الزراعة والمدينة هي ما ليس كذلك، أو هي (اللازراعية).

العمران الريفى :

حينما تحرك إنسان العصر الحجرى القديم من الكهف ليعيش فى مأوى له شيده من أغصان الأشجار وأوراقها خطى الخطوة الأولى فى سلم الحضارة .فإنسان العصر الحجرى الحديث تمكن بعد ذلك من معرفة الزراعة واستئناس الحيوان ومعرفة الملكية الخاصة للمحصول والحيوانات الأمر الذى أدى فى النهاية إلى الشعور بالحاجة إلى الحماية ، ومن ثم فقد تجمعت الأسر فى مجموعات متألفة وكونت القرى التى تمتع سكانها الزراعيين بمزايا الاستفادة من الحماية الطبيعية ، وقد أقيمت القرى فى مواقع محمية طبيعية سواء فى اليبس أو الجزر . وقد أدخلت القرية أشياء كثيرة فى حياة الإنسان إذ علمته المسئولية وهمست فى أذنه بأسرار التعاون فهناك مصالح مشتركة كما بين جميع الأهالى ومن ثم ظهر المجتمع ، كما ظهر التكوين السياسى لهم .

أنواع وأنماط العمران الريفى :

ينقسم العمران البشرى فى الريف إلى نوعين رئيسيين وهما :

(أ) القرى المتكتلة (المتجمعة) .

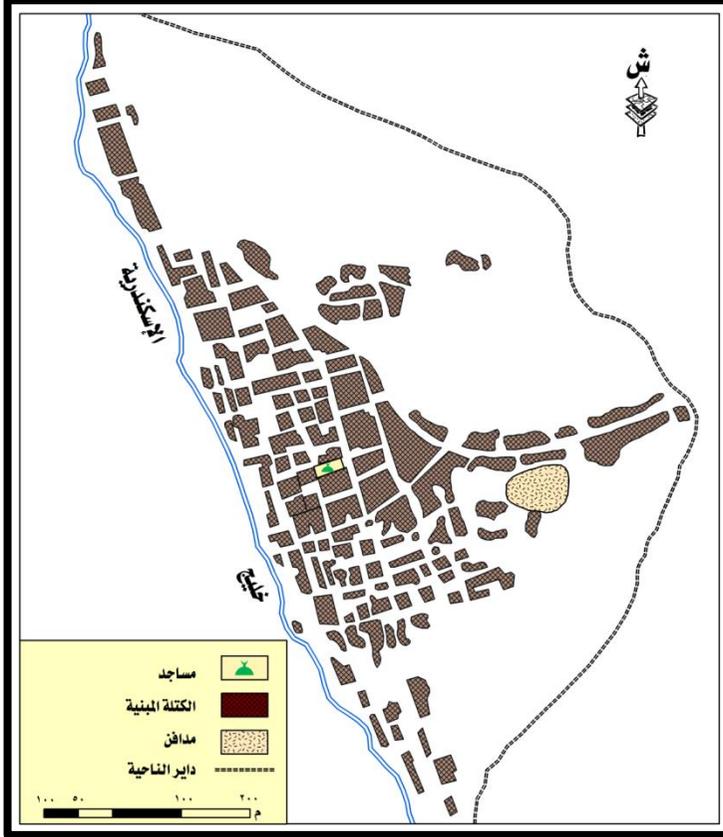
(ب) القرى المنتشرة (المنزلة) .

أولاً: القرى المتكتلة: وخير مثل لهذا النوع هي القرية المصرية إذ أنها تمثل هذا النمط خير تمثيل حيث تتصف بالتركيز والتجمع وفى نفس الوقت بالتعاون بن أهلها . وهذا النوع من القرى ينشأ أساساً فى الأودية النهرية الكبرى أو حيث تتوفر مواردها المياه من الينابيع والآبار أو فى البقع الجافة وذلك فى الأقاليم الرطبة التى تسقط فيها الأمطار طول العام وذلك فى غرب أوروبا.

والقرى المتكتلة توجد في الهند والصين ، كما توجد في فرنسا وفلسطين والعراق ولبنان . ويراعى في اختيار مواقع القرى في وديان الأنهار الكبيرة ألا يطغى عليها النهر في فصل الفيضان .

ثانياً: القرى المنتشرة: هذه القرى على النقيض من القرى المتكتلة إذ تتباعد

القرى عن بعضها وغالباً ما توجد في مناطق الاستقرار الحديثة في العالم الجديد ، كما توجد أيضاً في المناطق الجبلية

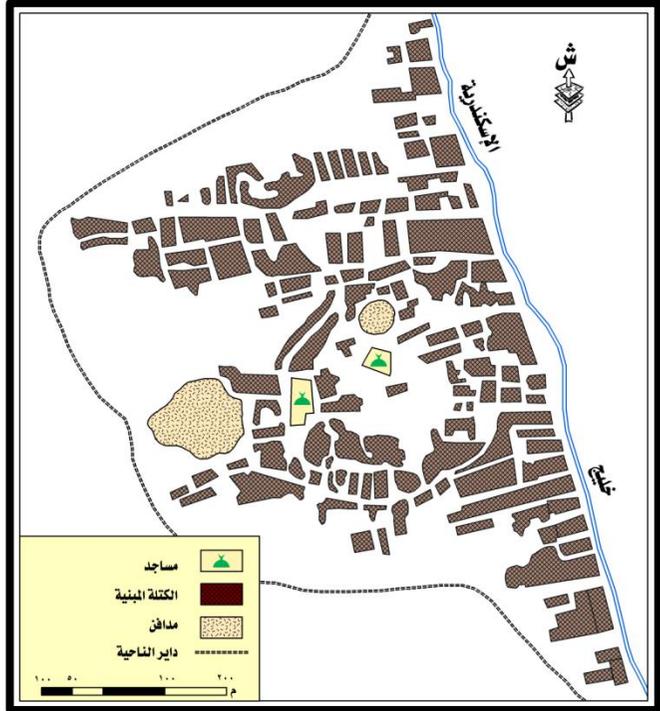


حيث التضاريس الوعرة ومظاهر السطح معقدة. والقرية المنعزلة أو المنتشرة قد لا يزيد حجمها عن مزرعة واسعة تحتوى على منزل للفلاح صاحب المزرعة وحظيرة ماشية وهناك عوامل طبيعية وبشرية تدفع السكان للعيش في قرى منتشرة وأهم هذه العوامل:

1- قلة موارد المياه : ويظهر ذلك بوضوح في مدن فلسطين حيث تتبعثر القرى وفقاً لوجود المياه الباطنية وحيث يزداد حجمها مع توفر كمية هذه المياه.

- 2- كثرة المستنقعات كما هو الحال فى بولندا حيث هناك رابطة مباشرة بين توزيع المستنقعات وتوزيع القرى التى يرتبط وجودها بالتربة الخفيفة.
- 3- كثافة الغطاء النباتى أو كثافة الغابات ويبدو أثر هذا العامل فى قرى ويلز الصغيرة التى توجد على المرتفعات التى تغطيها الغابات.

4- أسلوب الاستغلال الاقتصادى حيث يلاحظ الارتباط بين ممارسة حرفة الرعى ووجود القرى المنتشرة كما هو الحال فى القارة الأوروبية . وظائف القرى :



على الرغم

من أن الزراعة وتربية الحيوان تمثل الأساس الاقتصادى لمعظم القرى إلا أن هناك وظائف أخرى قد تؤديها القرية إلى جانب الزراعة ومن ثم فيمكن ان تقسم القرى الثابتة تبعاً لهذه الوظائف إلى أربعة أنواع هى :

1- قرى التسويق : وهى تلك المحلات العمرانية الريفية التى يقام بها سوقاً أسبوعياً يقصده الفلاحون الذين يعيشون فى القرى المجاورة فى أوقات دورية وهذه القرى فى أغلب الأحيان يوجد بها مدرسة إعدادية أو ثانوية إلى جانب نقطة بوليس وذلك بالنسبة للقرى المصرية بينما بالنسبة لبعض الدول الأوروبية قد يوجد بها قاعة للاحتفالات أو أى اجتماعات لذلك فيطلق عليها فى بعض الأحيان اسم بلدة .

2- قرى المزارع الواسعة : وهذه توجد فى مناطق الإنتاج الاقتصادى الكبير فى مزارع الولايات المتحدة وأستراليا وتتصف بأنها لا تزيد عن مجموعة من المنازل التى يسكنها العمال الذين يعملون لحسب صاحب العمل فى مزرعته .

3- القرى الاستراتيجية : وهى القرى التى تقام فى نقط إستراتيجية محصنة تحصيماً قوياً مثل المدن التى تقام عند فتحات الوديان التى تشرف على الطرق الجبلية .

المدن القديمة :

ترتبط مشكلة نشأة المدن بمعرفة متى تحولت القرية إلى مدينة وقد كانت حلقة الانتقال من القرية إلى المدينة هو وجود فائض إنتاج الطعام ووفرتة وقد حدث ذلك أبان العصر الذى شاهد كما سبق أن ذكرنا نشأة القرى . فى هذا العصر ازداد عدد السكان وأتيحت الفرصة لعدد منهم أن ينسلخ عن فلاحه الأرض وإنتاج الطعام والتخصص فى حرف أخرى ، ذلك بالإضافة إلى أن الدورة الزراعية ارتبطت بفصول النمو ومن ثم كان هناك فترات فراغ لا يقوم الإنسان فيها بالزراعة .

ومن الممكن القول أن المدن الحقيقية قد ظهرت فى منطقة الشرق الأوسط فى غضون الألف الخامسة ق.م حيث كانت تضم بين سكانها رجال الدين والتجار الصناع الذين قدموا خدماتهم لمجتمعات أكبر كان لديها فائض من الطعام يقدم نظير خدماتهم . ومن أمثلة المدن القديمة مدينة بابل بالعراق ومدينة هارابا بالهند ومدن مصر القديمة كمدن: بوتو وسائس وقفت وأبيدوس .

المدن اليونانية :

تمكن ملاك الأرض الأغنياء من طبقة النبلاء فى اليونان إلى الوصول إلى مركز السلطة فى غضون القرن 8 ق.م وتمكن القادة الذين ينتموا إلى هذه المجموعة أن يمارسوا كثيراً من النفوذ الذى كان يمارسه الملوك من قبلهم فقد

اختفت القلعة والقصر
وحلت المعابد الدينية محلها
. وعلى الرغم من أن
الحصن الأكروبوليس (Accepcolis)
الدفاعي كان نقطة هامة في
تأسيس المدينة إذا كان
مركزها إلا أنه سرعان ما
ترك مكانه إلى السوق العام
أو كما يسمى الأجورا



(Agora).

وقد نشأت المدن اليونانية في جزر بحر إيجه وكربت وسواحل اليونان وكانت
من أهم المدن مدينة ميكني ومدينة كنوسوس ومدينة أثينا.
المدينة الرومانية :

كان من نتيجة الحروب اليونانية أن وهنت قوة أثينا في خلال القرن 4
ق.م ومن ثم أصبحت لقمة سائغة
لجيوش الإسكندر الأكبر ، ولكن
رغم ذلك فلقد ظلت سمات عصر
الديمقراطية الممثلة في الحكمة
والمنطق والسببية والصفات
الجمالية ظلت قوية في تربة أثينا
، فحقيقة هُزمت الجيوش اليونانية
ولكن من المؤكد أن حضارتهم
سادت الغزاة . فقد انتشر التأثير



الإغريق على طول شواطئ البحر المتوسط ومع العصر الروماني ظهرت نماذج هندسية ومعمارية جديدة لبناء المدن.

في هذا العصر ازدهرت المدن القديمة كما أقيمت مدن جديدة فنمت مدينة الإسكندرية وسرقوسة من حيث الحجم والسكان . وقد أصبحت المدينة الرومانية مسرحاً لترف الأباطرة فأضيف إلى "الأجورا" المباني العامة الفخمة والمكتبة والسجن وبيت المال . بالإضافة إلى ذلك فقد شيدت الحمامات والملاعب كما أقيمت الحدائق والمنتزهات بعد أن أخذوا فكرتها من الشرق .

مدن العصور الوسطى :

في خلال القرن الخامس الميلادي أخذت الحضارة الغربية تحت وطأة الترف والاحتفالات تنحل وتدهورت تجارتها وتحول سكانها المدنيين للحياة الريفية . ومن ثم فقد تقلص حجم المدن ونقصت أهميتها وتبع ذلك اضطراب الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وإذا كانت مدينة العصور الوسطى قد امتازت بشئ في مراحلها الأولى فإنما تتسم بسيادة الكنيسة أو الإرساليات وقلعة اللورد واحتلت الكنيسة مكان السوق . ومع ازدياد الخدمات الممنوحة من اللوردات للتجار تمكن التجار من تأسيس نقابات لهم ومن ثم بنوا صالة النقابة وصالة المدينة بالقرب من مكان السوق ، أما القلعة فقد أحيطت بأسوار خاصة لتكون الحصن النهائي أمام الأعداء إذا ما حاولوا دخول المدينة واقتحام حصونها .

ورغبة في ازدياد تحصين المدينة . فقد اختيرت الجزر أو قمم التلال أو غيرها من مظاهر السطح المعقدة لتكون مواضعاً لمدن العصور الوسطى التي خططت لتناسب الظواهرات الطبوغرافية في المواقع التي أقيمت عليها ، ومن أمثلة مدن العصور الوسطى في أوروبا مدينة تروى بفرنسا ومدينة أولدنبرج بألمانيا .

مدن الباروك :

نشأت هذه المدن فى غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر وقد اتسمت هذه المدن بعظمة قصور الملوك التى كانت تتخذ كمظهر لسيادة الحاكم .وقد تميزت مدن الباروك بإقامة الساحات الكثيرة وكان هذا الاتجاه عام لكثير من مدن هذه الفترة . ومما هو جدير بالذكر أن القصور والحدائق الكبرى التى أقيمت فى عصر الباروك كانت تخص الطبقة الغنية التى تضم الملوك والأمراء والتجار الموسرين . أما عامة الشعب أو الطبقة الفقيرة فقد ظلت محافظةً على تقاليد بنائها التى كانت عليها فى العصور الوسطى ومن ثم فخلف الساحات والطرفات العريضات وجدت الأحياء المزدهمة بالسكان التى افتقرت إلى نظام توزيع المياه والصرف والمجارى والشروط الصحية .

مدن الثورة الصناعية :

من المعروف أن القرن 19م هو عصر الآلة إذ أنه حتى ذلك التاريخ كانت معظم الصناعات يدوية تابعة فى ورش صغيرة ملحقة بالمنازل كما كان عدد العمال صغير الأمر الذى أدى إلى وجود صلة دائمة وعلاقة مباشرة بين العامل وصاحب العمل .

ولكن مع اختراع الآلة البخارية فى أواخر القرن الثامن عشر وتعميم استخدامها فى المصانع زاد الإنتاج ونشطت التجارة وتحولت الصناعة من الورش الصغيرة لتحتل مناطق صناعية متخصصة ، ومن ثم زاد عدد العمال وتكونت نقابات العمال التى تدافع عن حقوق المنتمين إليها أمام أصحاب العمل . وهذه النقابات كانت على طرف النقيض من النقابات التى نشأت فى العصور الوسطى إذ أن النقابات الأخيرة كانت تضم فى معظمها أصحاب العمل .

وهكذا مع تقدم الآلة وازدياد رؤوس الأموال نتيجة النشاط التجارى المرتبط بالنهضة الصناعية أن أقيمت المصانع الكبرى التى أخذت تنمو وتجذب إليها عدد كبير من العمال والأسر العاملة وترتب على ذلك بناية مساكن للعمال وإنشاء مدارس لأبنائهم وكذلك المحلات التجارية .

وقد صاحب زيادة حركة المرور وإتخامها ارتفاعاً في كثافة السكان ومن ثم عن طريق مد الطرق الحديدية أمكن تفادي كثيراً من مشاكل ازدحام حركة المرور في نفس الوقت الذي بدأت فيه المجموعات السكانية تنتشر على أطراف المدن . ورغم ذلك ظلت مشكلة النقل قائمة للزيادة السكانية ولزيادة النشاط التجارى ولذا فقد أدخل نظام القطارات المكهربة التي تسير تحت الأرض في بعض المدن الكبرى في غرب أوروبا والعالم الجديد . وقد تبع ذلك اختراع الطائرات التي سهلت الاتصال من مكان لآخر وذلك من حيث المدة الزمنية والمجهود الذي يبذل في الانتقال .

وفي خلال القرن 19م أيضاً تحسنت وسائل الصحة العامة ففي عام 1920م أصبح نظام ضخ المياه معروفاً . كما تحسنت وسائل الصرف وتنظيف الشوارع بعد رصفها . نظراً لأن شوارع العصور الوسطى كانت مظلمة فقد استخدم في أضاءتها مصابيح الزيت ولكن عام 1812م بدأ استخدام الغاز الصناعي في الإضاءة في مدينة لندن رغم استخدامه في عام 1840م، وفي عام 1882م حلت الكهرباء محل الغاز في الإضاءة. وقد ساعدت الكهرباء على إضاءة المناطق السكنية والطرق العامة بالإضاءة إلى أنها كانت سر الدعاية الإعلانية لكثير من الشركات والبضائع في مدننا في الوقت الحاضر .

وقد ساعدت السكك الحديدية على الربط بين مراكز إنتاج المادة الخام والمصنع ومدن الاستهلاك . وقد اضطرت السكك الحديدية من أجل تأدية هذه الوظيفة أن تخترق المدينة ومن ثم أصبح المصنع وملحقاته من خطوط حديدية بؤرة نشاط المدينة .

أما الموانئ التي تقع على المحيطات أو البحار أو البحيرات أو الأنهار فقد كانت نوافذ لظهيرها الداخلى تصدر منتجاته وتستغل المواد الخام اللازمة لصناعته . وهكذا تعاونت السكك الحديدية والبواخر على خدمة المصانع وأصبحت الواجهات المائية النواة الصناعية في المدن .

وقد ظهرت نتائج الثورة الصناعية أولاً فى انجلترا إذ أدى الاقتصاد الصناعى الجديد على ازدهام السكان الفقراء فى الأحياء القديمة ومن ثم ظهرت الأحياء التى يطلق عليها الأوربيون اسم (Slums) وتكدست منازل العمال . وقد تبع ذلك إنشاء مدن العمال مثل مدينة (Bessbrck) التى بنيت فى عام 1846م لعمال مصانع الكتان بالقرب من نيورى (Newry) بايرلندا ومدينة سالتين (Saltaine) التى أقيمت فى عام 1852م لتضم 3000 عامل من موظفى مصنع النسيج بالقرب من بردافورد بانجلترا والقرى العديدة للعمال التى أقيمت فى مصانع الحديد فى أسن بألمانيا.

تصنيف المدن :

على الرغم من أنه من أصعب الأمور لدى الباحث إيجاد تقسيم دقيق للمدن وذلك لأنه لا توجد مدينة فى العالم تنفرد بوظيفة واحدة فقط لأن فكرة وجود المدينة مرتبط أساساً بتجميع الخدمات إلا أن المحاولات التى بذلت فى هذا الصدد كانت كلها تهدف إلى إيجاد تقسيم يعتمد على الوظيفة الأولى للمدينة وليست الوظيفة الواحدة ومن ثم يمكن أن تقسم المدن حسب وظائفها لما يأتى :

-المدن الحربية : وتشمل مدن القلاع والموانى الحربية ومدن القلاع قليلة جداً فى الوقت الحاضر وارتبطت فكرة قيامها بفكرة الدفاع التى دفعت أصحابها لاختيار المواقع المحصنة لإنشاء المدن مثل منحنى نهر أو قمة تل أو وراء مستنقع وهذه المدن التى انتشرت على وجه الخصوص فى عهد الاستعمار كانت معقلاً للأهالى يشرفون منها على سكان الأقاليم المفتوحة وخير مثل على ذلك النوع من المدن تلك التى أقيمت فى كندا التى ارتبطت بنهر سانت لورنس

أما الموانى الحربية فهى مراكز أو قواعد للقوات البحرية ومن ثم فقد تختار مواقعها على أسس إستراتيجية بمعنى أنه لا بد أن يكون فيها مرفأ أمين صالح لرسو السفن ومن أمثلة الموانى الحربية ميناء شربورج وسوث هامبتون .

-المدن التجارية : وهى مدن تعتمد على التبادل التجارى وتشمل الموانى البحرية التى تعتبر نوافذ للدول التى تطل على البحار وتستقبل عن طريقها التجارة وتصدر عن طريقها أيضاً بضائعها مثل مدينة الإسكندرية ، كما تشمل المدن التجارية أيضاً مدن التجارة البرية مثل مدينة تدمر بسوريا والتى ارتبطت بالبحار والمحيطات مثل مدينة ميلانو ولوس أنجلوس .

-المدن الصناعية: وتشمل مدن المناجم مثل مدن الفحم فى بريطانيا وفى شمال فرنسا ومدن البترول ، ومدن الصناعات التحويلية ومدن المصانع بطبيعة الحال .

- مدن الترفيه والاستشفاء : ويدخل تحتها مدن الترفيه ومدن الاستشفاء ومدن الحدائق وأهم ما يميز هذه المدن هو أن السكان يتغيرون بسرعة بعد إقامة قصيرة فى الغالب ومن أمثلة هذه المدن فى مصر مدينة رأس البر وبطيم ومرسى مطروح وحلوان سابقاً .

- مدن العواصم : وهذه المدن تتصف فى معظم الأحيان بأنها مركز ثقل سكانى بالنسبة للدولة ومكان لتركز الإدارة والنشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى مثل مدينة القاهرة ولندن وباريس

- مدن الجامعات : مثل مدينة أكسفورد ومدينة كمبردج بانجلترا حيث تساهم الجامعة فى الحياة العامة فى المدينة بنصيب الأسد .

- المدن الدينية : وهى المدن الروحية مثل مدينة القدس ومكة والمدينة والمدن الدينية تكتسب أهميتها من قداستها الدينية كمركز للحج أو لوجود ضريح لأحد رجال الدين أو لأمر مقدس .

نستخلص من هذا أن الفرق بين القرية والمدينة يعتمد على مقاييس عديدة أبرزها أن القرية تعتمد فى حياتها على الزراعة وأن أنواع العمران البشرى فى الريف تتوزع بين القرى المتكتلة والقرى المنتشرة . أما المدن فمشكلة نشأتها ترتبط من الناحية التاريخية بمعرفة متى تحولت القرية إلى مدينة وإن كان من

الثابت تاريخياً أن أول المدن ظهرت فى منطقة الشرق الأوسط فى غضون الألف الخامسة ق.م ومنذ ذلك التاريخ أخذت المحلات العمرانية تتطور مع تطور النظام الاقتصادى ومع حاجة المجتمع ومن ثم امتازت مدن العصور الوسطى بأنها محصنة بينما كان لتقديم وسائل المواصلات أثر واضح فى نمو مدن القرن العشرين أو المدن الحديثة الأمر الذى أدى إلى تعقد تركيبها مما دفع الباحثين على تقسيم المدن حسب وظيفتها إلى مدن صناعية وأخرى تجارية وثالثة روحية ذلك إلى جانب المدن الحربية ومدن الاستشفاء.

- المراجع

1. Alimen, H., The Prehistory of Africa, London, 1952.
2. Boyd, W.G., Genesties and the Races of Man, Boston, 1950.
3. Burkitt, N., Prehistory, Cambridge, 1936.
4. Childe, V.G., Social evolution, London, 1951.
5. Childe, V.G., What happened in history, London, 1941.
6. Gole, S., Races of Man, London, 1963.
7. Coen, C.S., The history of man, London, 1955.
8. Carr-Saunders. A.M., World population pnat growth and present taends. Oxford, 1916.
9. Fawcett. C., The position of some capital cities, Geography, Teacher, 1918, Vol.9, pp,233-249.
- 10.Ford. C.D., Habitat. Economy and Society, London, 1934.
- 11.Garnier. B., Geography of population, London, 1966.

12. Granier. B., Urban geography, London, 1967.

الفصل السادس

الإنسان واستغلال الأرض

(أنماط مختلفة)

من دراسة توزيع الإنسان وانتشاره ومراكز توطنه يظهر لنا بوضوح أنه ليس هناك قاعدة معينة يلتزم بها هذا التوزيع في كل مكان في العالم إذ أن السمة المميزة لخرائط توزيع السكان وكثافتهم على السطح الأرض هي سمة عدم الانتظام والسبب في ذلك هو أن العوامل التي تؤثر في هذه التوزيع متعددة

بعضها يتصل بالبيئة التي يستغلها الإنسان والبعض الآخر يرتبط بالمستوى الحضارى الذى وصل إليه الإنسان وطرق استغلال لهذه البيئة .

حقيقة استطاع الإنسان فى العصر الحديث أن يحقق انتصارات وانجازات حضارية كبيرة ، فاستطاع أن يصل إلى القمر وهو فى طريقه لدراسة كوكبى المريخ والمشتري كما استطاع أيضاً أن يتحكم فى بعض عناصر بيئته بفضل مقدراته العلمية المتطورة ولكن رغم ذلك فما زالت هناك جماعات بشرية قليلة العدد تعيش فى مناطق ركنية من العالم فى عزلة عن تيار الحضارة والحضرية .

فالجماعات الأولى تعتمد على جمع الغذاء أو رعى الحيوانات أو الزراعة المتنقلة كما كان يفعل أجدادنا القدماء الذين عاشوا فى العصور الحجرية وهؤلاء يتناثرون فى مناطق متفرقة من العالم فى أعداد قليلة .

أما المجموعة الثانية وهى التى تعيش فى ظلال الحضارة الحديثة فتمارس حرف الزراعة المستقرة المتقدمة وحرفة الصناعة بأنواعها ذلك إلى جانب التجارة والتعدين والخدمات وغيرها من الحرف التى تربط بما يمكن أن نسميه باسم " التعمد الحضري " وذلك على اعتبار أن مجتمعات الحضرة تمثل قمة استغلال الإنسان لبيئة والجماعات الخيرة تكون فى وقتنا الحاضر الشطر الأعظم من سكان العالم .

المجتمعات البدائية:

تسير الجماعات البشرية بدرجة كبيرة فى الوقت الحاضر ومع هذا الاتجاه أخذت الحضارات البسيطة أو البدائية (Primitive cluture) فى التلاشى والانقراض بينما تعرضت قليلة منها لتغييرات جذرية مست صلب تركيبها ووظيفتها وذلك لانتشار الحضارة الغربية واحتكاكها بها.

تعيش المجتمعات البدائية الموجودة فى وقتنا الحاضر فى شبه عزلة عن المناطق المجاورة وتعتمد فى حياتها على الجمع والالتقاط وصيد البر والبحر أو

على الرعى المتنقل أو الزراعة البدائية وهذه الجماعات تعيش فى بيئات صعبة قاسية لا تلائم الاستقرار البشرى ، كما أن احتكاك الرجل الأبيض بهم أدى إلى نقصان أعدادهم وأدى فى بعض الأحيان إلى انقراضهم نتيجة لنشر بعض الأمراض الخبيثة والأوبئة بينهم.

والجماعات البدائية التى تحترف الصيد والجمع تشترك جميعاً فى كونها جماعات مستنزفة لموارد البيئة القليلة إذ أن حرفتى الجمع والصيد تشتركان فى صفة الهدم كما أن الإنسان هنا أكثر ارتباطاً واستجابة للطبيعة إذ يلجأ إليها ليسد كل متطلبات حياته الضرورية من مأكّل وملبس ومأوى.

ويعيش جامعو الغذاء فى مناطق منعزلة فى نطاق الغابات الاستوائية فى حوض الكونغو وحوض الأمازون فى أمريكا الجنوبية وفى بعض جزر المحيط الهادى.

وقد كانت الجماعات التى تعيش على الجمع والالتقاط أكثر انتشاراً فى الماضى ولكن اضطرت أن تعيش الآن فى مناطق صعوبة دائمة وذلك تحت ضغط الجماعات الأقوى منها ، وغالباً ما تتسم مناطق استقرارهم بأنها نهاية المطاف بالنسبة لحركة هذه الجماعات المستضعفة .

ومن أمثلة الجماعات المستضعفة الإسكيمو (سكان المناطق القطبية فى أمريكا الشمالية) وجماعات الأونا فى جزيرة تيرا دلفيجو فى الطرف الجنوبى من أمريكا الجنوبية وجماعات اللاب والسامويد فى شمالى آسيا وتشتغل هذه الجماعات برعى الرنة والكاربيو .

ومن الجماعات الملتقطة للغذاء والصائد جماعات الفدا فى سيلان وجماعات السكاى والسيمانج فى جزيرة الملايو وجنوب تايلاند وجماعات الإندمان وبعض العناصر التى تسكن المناطق النائية بشبه القارة الهندية . وبيئة هذه الجماعات بيئة غابية كثيفة متخمة بالنباتات المتسلقة والأدغال ولا تساعد ظروفها الجغرافية على الاشتغال بحرفة الرعى أو الزراعة غير أن وفرة

الحيوانات والطيور والثمار فى تلك المناطق قدمت إمكانيات العيش لهذه الجماعات وكفتها مشقة قطع الأشجار وإعداد الأرض للزراعة.

جماعات الإسكيمو

"نموذج للجماعات الأولية بشمالى أمريكا الشمالية"

البيئة الجغرافية :

يكون الإسكيمو جماعة متميزة سلاليا ولغويا وحضاريا فى المنطقة القطبية التى تمتد من شرق جرينلند وعبر شمال كندا وألاسكا إلى سيبريا وينتمى الإسكيمو من الناحية الجنسية إلى المجموعة المغولية حيث يرتبطوا سلالياً بالهنود الأمريكيين رغم أن بعض صفاتهم الخاصة جعلت بعض الأنثروبولوجيين يفردون لها سلالة منفصلة عن الهنود الأمريكيين .

ويتميز الإسكيمو بصفة عامة بالقامة القصيرة إذ يتراوح متوسط طول الرجال بينهم ما بين خمس وست بوصات فى حين يقل طول المرأة عن ذلك . وتتصف وجوههم بأنها عريضة مفلطحة مع بروز عظام الوجنات وذلك إلى جانب ثنية العين المغولية والشعر الأسود الخشن ولون البشرة البنى الفاتح وغيرها من الصفات التى تلتصق بالمجموعة المغولية .

وتتنمي جميع لهجات الإسكيمو التى تنتشر عبر 3000 ميل إلى أرومة لغوية واحدة غير أن اللهجات تختلف اختلافاً طفيفاً فيما بينها وعلى أى حال تكاد تكون لغة الإسكيمو منعزلة تماماً بحيث لم يحدث أى تسربات لغوية إليها، ويبدو أن توافق الطابع الجنسي واللغوى والحضارى لجماعات الإسكيمو يشير إلى أنهم قد تحركوا إلى موطنهم الحالى فى فترة أحدث من تلك الفترة التى وصل فيها الهنود الأمريكيين إلى العالم الجديد .



وحتى الآن لم يتمكن الأركولوجيون من تحديد بدقة المكان الذي وفد منه الإسكيمو أو الوقت الذي جاءوا فيه فأقدم المواقع الأثرية للإسكيمو في رأس دبنيف (Cape Denbigh) بألاسكا تشير على أن عمر طلائع الإسكيمو يعود لأكثر من 4000 عام ، وهناك أحدث من ذلك توجد في جزيرة تول ويرجع تاريخها إلى 1000م وتوجد على السواحل القطبية في كندا وتبين الأدلة الأثرية أن هناك موجتين متتابعتين من الإسكيمو انتشرت صوب الشرق من ألاسكا إلى جرينلاند وأن هذه الموجات ربما حملت كثيراً من الحضارة الآسيوية.

وتأثير العروض القطبية يترك بصماته الواضحة على طبيعة البيئة الجغرافية إذ تقع معظم محلات الإسكيمو بين خطى عرض 60° - 70° شمالاً حيث يوجد

اختلافاً جذرياً بين فصلى الصيف والشتاء. ففي فصل الشتاء لا يرى بعض الإسكيمو الشمس لعدة أسابيع اللهم إلا على هيئة وميض بسيط من الضوء بينما فى فصل الصيف فهؤلاء الذين يعيشون فى المنطقة الممتدة عن خط عرض 66.5° شمالاً يمكنهم رؤية الشمس طوال النهار والليل ، وبطبيعة الحال تختلف درجة الحرارة كثيراً على مدار السنة ففي فصل الشتاء الذى يستغرق حوالى 9 شهور من السنة تنخفض درجة الحرارة دائماً إلى مادون الصفر كما تتراوح فى بعض الشهور ما بين 30°ف و 50° ولا ترتفع درجة الحرارة فوق درجة التجمد إلا فى خلال شهرين أو ثلاثة فقط.

وبطبيعة الحال البيئة ليست متشابهة تماماً فى كل المنطقة التى يقطنها الإسكيمو ولهذا السبب فقد نمت بعض الحضارات التى عكست هذه الاختلافات ، وإن كان الاختلاف يتوقف أساساً على نوع الحيوان الذى يعتمد عليه الاقتصاد . فمصدر الإسكيمو المميز هو عجل البحر الذى يصطاد فى فصل الشتاء وإن كان هناك بعض الجماعات الأقل تخصصاً فى الصيد والتى لا تعتمد كثيراً فى حياتها عليه .

وتوجد أنقى أشكال الصيد القطبى الذى يطلق عليه حضارة القطب الراقية (Highactctic Culture) بين إسكيمو القطب فى شمال جرينلاند حيث تعتمد الحياة كلياً على مصادر البحر أما فى المناطق التى تقع أكثر نحو الجنوب فى جرينلاند ولبرادور وجزر أوليشيان بالقرب من ألaska فتجد أن الحضارة الشبه قطبية (Subarctic cultur) لها ارتباط أكبر بالمياه المفتوحة حيث يزداد الاعتماد أكثر على صيد الأسماك مستخدمين فى ذلك القوارب مع اختلاف طفيف للحياة الشتوية لإسكيمو القطب.

بالإضافة
إلى ذلك توجد
مجموعات صغيرة
مثل جماعات
إسكيمو الكاريبو ()
Caribou
التي (Eskimo)
هجرت تماماً البحر
فى سبيل الاعتماد
فى حياتها على تتبع



الصيد البحرى وصيد الأسماك من الحفر الجليدية بنفس الطريقة التى يمارسها
الهنود الأمريكيين فى المناطق التى تقع إلى الجنوب من مناطقهم أما الحضارة
الأقل تخصصاً فى وسط وسواحل كندا فلها نمط آخر حيث يعتمد على الصيد فى
التلج أبان الشتاء وذلك إلى جانب الاعتماد بدرجة كبيرة على أنشطة الصيد البرى
فى الفصول الأخرى . وهذا النمط هو أكثر أنماط الإسكيمو انتشاراً بينما ما دون
ذلك يمثل وجوهاً خاصاً داخل جماعات الإسكيمو.

وطريقة صيد الحيوان البحرى التقليدية المعروفة هناك والتي تسمى
باسم صيد ماوبوك (Maupck) والتي تعنى انتظار الصائد إلى جانب فتحة
تنفس الفريسة هى الطريقة السائدة فعجول البحر تأتى بانتظام على هذه الثقوب
التي كونتها منذ بداية الجليد فى الظهور

وتقدم الثدييات البحرية إلى الإسكيمو بالإضافة على الطعام الشحوم التي تحرق بدون دخان وتعطى حرارة تبعث الدفاء والضوء خلال شهور ولولا هذه الشحوم لكانت حياة الإسكيمو صعبة للغاية حيث لا توجد أخشاب تحرق فى المناطق القطبية كما أن دهون الحيوانات الأخرى ليست مثل دهون الثدييات البحرية . ولا يستخدم جلد عجل البحر (Seals) دائماً فى صناعة الملابس إذ أن فروة

حيوان



الكاريبو

تعطى أكثر دفئاً كما أنها أخف وألسلسل فى الصنع وتأكل كل أجزاء جسم عجل البحر بدون طهى ولا يعرف كيف أن الإسكيمو لا يدركوا مدى أهمية هذه اللحوم النية للصحة وإن كان من المؤكد أنهم يعانون العديد من النقص الغذائى إذا لم يتناولوا هذه اللحوم غير المطهية حيث لا يوجد خضروات طازجة أو فاكهة وذلك لمدة تتراوح ما بين تسعة وعشرة شهور فى السنة .

تبدأ ثلوج البحر فى التشقق والانكسار حينما يصبح النهار أطول مكونة قنوات تجرى فيها تيارات قوية ومن ثم تبدأ الأسر التى كانت تعيش فى المحلة الشتوية تتحرك وتنتشر لتدخل فى معسكرات لصيد الربيع حيث تبدأ الثدييات البحرية مع صغارها فى الظهور على الثلوج وتقدم صيداً سهلاً للعائدين المهرة الذين يمكنهم الزحف ورائهم والإمساك بهم ومع تحسن الطقس بزيادة الدفاء

يجوب الصيادون أطراف المياه المفتوحة وذلك للصيد حيث يصطادوا فى بعض الأحيان الحيتان .

كذلك يصبح الصيد البرى فى هذه الفترة هاماً ولاسيما الثور الموسكى الذى انقرض للتوسع فى صيده ومن عادة هذه الحيوانات تكوين دائرة للحماية حيث يقف الذكور فى المقدمة والإناث والصغار فى الداخل . ولذا فيسهل على الصيادين قتل أعداد كبيرة منهم بسهولة وتجمع كميات كبيرة من اللحوم والشحوم فى هذا الفصل الوفير وتخزن فى أكوام مرتفعة بالحجارة وذلك لحفظها من التهام الحيوانات .

وفى فصل الصيف أو كما يطلق عليه فصل السعادة تجذب نباتات التنديرا أعداد كبيرة من قطعان الكاربيو صوب الشمال ومن ثم تقام معسكرات الصيف على رؤوس الأودية الداخلية.

والأسماك وفيرة فى فصل الصيف على طول ساحل كندا ولاسيما سمك السالمون والذى يبدأ هجرة الفصلية مع بداية الصيف إلى أعلى الأنهار. ففى هذه الفترة تتحرك جماعات السالمون فى أعداد هائلة كثيفة لدرجة أنه يمكن اصطياد كمية كبيرة منه فى الرمية الواحدة ويستخدم السنار المعقوف والمستقيم ذوى السنون العاجية فى الصيد فى المياه العميقة كما يستخدم الشباك والسدود فى بعض المناطق الأقل عمقاً.

ويقل نشاط الصيد فى الفترة الممتدة من أواخر الصيف وحتى الشتاء إذ يترك الكاربيو الإقليم كما أن الثلوج لم تأخذ بعد صفتها الدائمة التى تتواجد عليها فى الشتاء ويوجد دائماً وفرة فى الطعام المخزون الأمر الذى يوضح كيفية عدم الاستمرار فى كمواقع المعسكرات والمحلات العمرانية التى ظهرت فى الفصل السابق وتستطيع الأسر المختلفة أن تعود إلى نفس المكان مرة أخرى حين يأتى موسم الاصطياد . وتشغل بعض الجماعات الكندية منازل حجرية دائمة فى وقت الصيد مما يساعد على استخدامها لعدة أجيال بل قد تستخدم بصفة دائمة إذ كان

من السهل الخروج منها إلى مناطق صيد الشتاء وبعضها يبقى مسكوناً حتى بداية الربيع .



وقد لجأ الإسكيمو إلى ملائمة حياتهم بهذه الصورة في بيئة تنقصها مواد الخام الرئيسية ولاسيما الأخشاب التي تخدم أغراض تكنولوجية عديدة في بقية أنحاء العالم فالأحجار والعظام والعاج وجلود الحيوانات وكذلك الثلوج والجليد قد تحل محل الأخشاب . فقد تستخدم العظام والعاج والقرون في عمل الزحافات إذ تصنع الزحافة التقليدية لإسكيمو الوسط عن طريق تجميع عظام فك الحوت وحقيقة أنه يصنعون الزحافة من قطع متعددة وليس قطعة واحدة لأن لها ميزة عملية هامة وهي أن الزحافة المصنوعة من قطعة واحدة قد تكون أقل ثباتاً أثناء انزلاقها على الجليد من تلك المصنوعة من قطع متعددة .

ويعد كلب الزحافة من أشهر عناصر حضارة الإسكيمو إذ أن هذا الكلب الضخم القوى القلب هو الحيوان الوحيد الذي يربى في جميع بقاع الإسكيمو حيث يستخدم عدد من الكلاب التي يقود بها كلب متقدم ببضعة أقدام عن الأخرى في جر الزحافة وتكون كلاب كل زحافة مجموعة متألفة يقودها أقوى المجموعة

ويشجعها حيث يعرف كل كلب موقعه في عجلة الجر عن طريق التعود . ويصل عدد كل مجموعة خمسة أو ستة كلاب ولكن في أغلب الأحيان يقل العدد عن ذلك إذ أن الكلاب العاملة تستهلك كميات كبيرة من الأسماك والثدييات الأمر الذى يجعل اقتنائها بأعداد كبيرة امراً مكلفاً ولاسيما أبان فصل الشتاء الطويل . ويعتبر قارب الكاياك وسيلة مهمة للصيد لإسكيمو الساحل فى فصل الصيف وهذا القارب الذى لا يزيد حجمه عن قوارب " الكانو الصغير " يعتبر من أفضل القوارب البحرية الصغيرة التى اخترعت فقد صنع إطاره أو هيكله من عظام الحيتان ويطن كله بالجلود ولم يترك فتحة سوى تلك التى يجلس فيها النوتى وما أن يجلس بها وهو مرتدى جاكيت من الجلد ويثبت فى القارب حتى يصبح منه .

أما عن الأوميأك (Umiak) قارب المرأة فهو أكبر حجماً من الكاياك كما أن سطحه مفتوحة وذلك عن النقيض من قارب الرجال ويستخدم عادة كوسيلة فى الانتقال أكثر من استخدامه فى الصيد.

وعلى الرغم من أن منزل الإسكيمو بسيط إلا أن فحصه يشير إلى دقة فى التركيب فمنزل الثلج المؤقت الذى يطلق عليه اسم أيجلو (Igloo) معروف جيداً لكثير من الدارسين غير انه ليس من السهل تشييده كما يتصور البعض فكتل الثلوج الضخمة تقطع من جروف ثلجية متماسكة بواسطة سكاكين طويلة عظمية ثم ترص على شكل قبة. ويستطيع الإسكيمو قطع الكتل الثلجية بسرعة فائقة وبأحجام دقيقة تلائم الأماكن المطلوب وضعها فيه بدقة .

ومدخل المنزل عبارة عن نفق صغيرة يمكن الدخول إليه عن طريق الزحف وذلك لكى يمنع البرودة وهذا النفق طويل فى العادة لنفس السبب السابق وترتفع أرضية الحجرة الرئيسية غالباً قدم أو اثنين عن مستوى الممر وذلك أيضاً من أجل الابتعاد عن تيارات الهواء الباردة .

وتغطى فى بعض الأحيان جدران الحائط والأسقف بجلود عجل البحر وذلك عن طريق تثبيتها بأحبال تخترق الحوائط وفى هذه الحالة تخلق طبقة عازلة من الهواء حيث يستطيع الأهالى أن يرفعوا درجة حرارة المنزل عن طريق المواعد لدرجة معتدلة دون أن تؤدى إلى إذابة الحوائط الداخلية كثيراً .

والمنازل الدائمة التى تشيد على الساحل لها ممر كالمنازل السابقة ولكنها تختلف عنها فى أنها تنحت فى الأرض لعمق قدم أكثر ، وأن حوائطها تبنى من الحجارة التى تقع على سطح الأرض ما بين خمسة وستة أقدام ، كما تستخدم عظام الحوت ولاسيما الضلوع كدعائم للمنزل ويراعى وضع العظام المقوسة فى واجهة المنزل وذلك لسهولة عمل النوافذ كما يغطى السقف بالجلود مع العلم بأن الثلوج الساقطة فى فصل الصيف تكون طبقة عازلة فوق المنزل ، أما الأرض والحوائط والأسقف وكذلك رصيف المعيشة أو مكان المعيشة فتغطى جميعها بجلود عجل البحر أو عظام الحيوانات الأخرى فتستخدم كشاجب فى الحائط أو تستخدم فى أغراض أخرى كعمل السنانير والفخوخ.

وملابس الإسكيمو ملائمة تماماً للأحوال القطبية فهى محاكاة بإتقان ومصنوعة بدرجة أنه من الصعب إدخال أى تحسينات عليها . فكل الملابس مصنوعة من جلود الحيوانات فيما عدا رداء المطر الواقى المصنوع من الجوت (Gut) ويجهز الجلد أولاً عن طريق تخليصه من الدهون الموجودة به من الداخل بواسطة سكين ثم يشد بعد ذلك على عظمتين ليجف وبعد ذلك تقمن النساء بمضغ الأجزاء الداخلية لتخليصها من الدهون المتبقية وتلينها ويجفف بعد ذلك للمرة الثانية حيث تستخدم مقاشط وسكاكين من العظام لتلينه أكثر والجلود المصنوعة بهذه الطريقة يمكنها المحافظة على درجة الحرارة .

وتتسم صناعة الإسكيمو بالتنوع الكبير فى أسلحة الصيد فهناك أنواع عديدة من المقاشط والسكاكين والمخارز وأنواع أخرى من الأسلحة المدببة التى صنعت عن طريق شطف الحجارة وحكمها . وقد عرف الإسكيمو فى بعض

الأماكن القليلة المتفرقة كيفية طرق النحاس لتشكل بعض السكاكين كما استخدموا الحديد فى صناعة بعض المقاشط والسكاكين فى شمال غرب جرينلاند وأسلحة الصيد التقليدية هى الفؤوس والسهام . وتصنع الفؤوس فى العادة من ثلاث قطع من العظام التى تربط سوياً بواسطة حبال مطاطة . ويعتبر الرمح بأنواعه المختلفة أهم أنواع أسلحة الاسكيمو الوطنية.



ويؤكل معظم طعام الاسكيمو نيئاً ومن ثم ففنون الطهى غير متقدمة لديهم إذ ينظر إلى الطعام ببساطة على أنه مجرد تموين الجسم بالوقود. ويستطيع رجل الاسكيمو أن يأكل كمية كبيرة من اللحم فى الوجبة الوحيدة حيث يضع فى فمه قطعة طويلة من لحم ويقوم بتقطيعها بالسكين بالقرب من شفثيه. وقد تهدد المجاعة الاسكيمو باستمرار فى بعض أوقات السنة حتى أن جلود الأحذية قد تمضغ فى بعض الأحيان وذلك فى حالة غيبة الطعام .

سلوك اجتماعى آخر جدير بالملاحظة بالنسبة للإسكيمو وهى قتل المسنين أو الأشخاص العاجزين . وهذه العادة على أى حال ليس خطيرة لأنها تحدث فى أوقات المجاعة وذلك لأسباب واضحة جداً .

وفى بعض الحالات الأخرى ككبار السن والمرضى ربما يتركوا للموت وهذا أيضاً بناءً على طلبهم . وكثيراً ما تأخذ روح التضحية الذاتية من أجل الأسرة أو القرية شكلاً جماعياً . وعلى الرغم من أن الإسكيمو يتسموا بالإحساس الرقيق إلا أن عليهم أن يواجهوا عملية القتل القاسية كما يواجهوا أى حقيقة أخرى تقابلهم فى حياتهم .

ومنذ اتصال الإسكيمو بالرجل الأبيض تعرضوا لكثير من المتاعب التى يعرفها البدائيون فمثلاً تعرضوا لأمراض الأوروبيين مثل البرد العادى والسل والأنفلونزا والحصبة والجدري وغيرها من الأمراض التى ابتلى بها الشعب . وكان أول من تعرض لهذه الأمور وبشكل واضح إسكيمو لأسكا ذلك لأن التطور الاقتصادى وتغلغل الرجل الأبيض منذ الفترة التى اندفع فيها للبحث عن الذهب مبتعداً عن المناطق الكندية أدى إلى تأثر جميع الإسكيمو بهذه الأمراض وأصبح الجميع يشكون من اضطرابات فى التغذية مثل سقوط الأسنان والاضطرابات الجلدية والمعدية والمعوية .

وأصبحت البندقية الحديثة أمراً عادياً وإن كل ما ترتب على استخدامها وصل إلى درجة الخطورة فقد أوشكت قطعان الكاربيو والثيران الموسكية على الانقراض فلم تعد مصدراً يعتمد عليه كغذاء صيفى .

ولكى يحصل الإسكيمو على الحيوانات من أجل الطعام وبذلك أصبح اقتصادهم اقتصاداً نقدياً حتى يستطيع أن يشتري ما يحتاج إليه من طعام . ويتميز الإسكيمو بصفة الصداقة الحقة فهم شعب منفتح كثير الثقة بالآخرين . وفى الأسكا بالرغم من الاستغلال الذى يتعرضون له عاماً بعد عام فإنهم عن طريق الهيئات الحكومية والمدارس يمكن أن يكونوا على اتصال بالعالم دون أن يودى ذلك إلى القضاء عليهم . وفى المناطق القطبية الوسطى لم يتعرض الكثير منهم إلى تأثير المدينة الحديثة تأثراً كاملاً ولكن أغلب الظن أن ذلك سوف يحدث فى القريب العاجل.

قبائل النوير

(نموذج للقبائل الرعوية فى قلب القارة الأفريقية)

البيئة الجغرافية :

تقطن قبائل النوير نطاق الحشائش المدارية الذى تشغل المنطقة الممتدة على التخوم الجنوبية للنطاق الصحراوى وصوب الجنوب إلى شرق أفريقيا ، والنوير جماعات طويلة القامة ذوى سيقان طويلة ورؤوس ضيقة إذ يمثلوا نتاج سلالى متنوع بين سلالة البحر المتوسط وزنوج غابات أفريقيا . ويتحدث النوير لغات متقاربة وضعها الباحثون حديثاً كلها تحت مجموعة اللغات السودانية الشرقية . وقبائل ترعى الماشية وتتمثل خير تمثيل فى الجزء الشمالى من شرق أفريقيا غير أن اختلاطهم بجماعات البانتو الزراعيين يظهر بوضوح كلما اتجهنا جنوباً إلى أوغندا.

ومن الجماعات الرعوية النقية الماساى فى جنوب كينيا وشمالى تنزانيا وهم جماعات معروفة جيداً على الرغم من أنهم ليس أفضل النماذج النويرية إذ أن الجماعات التى توجد فى الشمال تعتبر أكثر تمثيلاً لمجموعات القبائل السودانية الرعوية المنتشرة فى المنطقة على نطاق واسع .

والمنطقة التى يقطنها النوير فى وسط وجنوب السودان عبارة عن منطقة واسعة من الحشائش يخترقها المجرى الأعلى من نهر النيل بروافده المتعددة ، وهى ذات مناخ مدارى حيث تنقسم السنة بالتساوي بين فصل شديد الجفاف وآخر غزير المطر.

ويبدو أن هذه المنطقة تشهد من وجهة نظر الزراعة الحديثة أو رعى الحيوان فترات تزيد فيها المياه عن الحاجة وأخرى تقل فيها لدرجة واضحة. ولذا توجد أنواع متعددة من الحشرات فى المنطقة . فى فصل الأمطار يوجد البعوض بكثافة غير عادية لدرجة تحول دون عمل الإنسان والحيوان اللهم إلا إذا احرق ناراً يصدر منها دخاناً كثيراً. أما فى فصل الجفاف فيهاجم الذباب بأنواعه المتعددة الحياة الحيوانية.

ويبلغ عدد النوير حوالى 300 ألف شخص غير أنه لا يربطهم جميعاً أى وحدة سياسية فلا يشار إلى النوير كشعب أو مملكة بل عبارة عن مجموعة

من القبائل المتشابهة حضارياً ولغوياً والتي جعلها تشعر بدرجات متفاوتة أنهم يكونون مجموعة مختلفة عن جيرانهم وجماعات الدنكا التي ظلت لفترة طويلة من أشد أعداء النوير أكثر قرابةً لهم من الجماعات الأخرى المحيطة بهم ومن المحتمل أن ينتمي النوير والدنكا إلى أصل حضارى ولغوى واحد.

ومن جيرانهم الآخرين القبائل المتعددة المتحدثة بلغة الشلوك مثل الجالا فى أثيوبيا والأنواك (Anuk) والبوير (Boir) أما إلى الشمال فيوجد العرب الرعاة الذى اتصل بهم النوير فى بعض الأحيان وبصفة عامة نجد أن طبيعة وصفات اختلاط النوير بجيرانهم كانت واضحة.

وجماعات النوير جماعات رعوية أساساً على الرغم من أنهم مثل أى مجموعة رعوية أخرى فى العالم ، يقوموا بزراعة بعض المحاصيل القليلة حينما يدفعهم الفقر إلى ذلك بغض النظر عن فقر التربة وعدم ملائمة المناخ لذلك .

وتعتبر الماشية من أهم ممتلكات النوير التى لا يعادلوا أهمية امتلاكها بأى شئ آخر فقد ذكر أحد الباحثين وهو البروفسير إيفانس بويتشارد (Evars Pritchard) فى كتابه عن النوير الذى صدر فى أكسفورد عام 1940م أن " النوير لا يتحدثوا عن شئ سوى حيواناتهم وأنه وصل لدرجة اليأس أحياناً أنه فشل أن يجد فى حديثه مع الرجال سوى الحيوانات والنساء بل أن الحديث عن النساء كان يقوده دائماً إلى الحديث عن الموضوع الأول " .

ويعتبر اللبن غذاء النوير الأساسى على مدار السنة، فقد يشرب طازجاً يخلط بالذرة لعمل العصيدة كما يملح لعمل أطباق خاصة من الطعام ذلك إلى جانب صناعة الزبدة.

وأهم الغلات التى يزرعها النوير السوريجام وبعض الذرة ويعتبر



السوريجام أهم الأطعمة لدى النوير بعد اللبن فيصنع منه

العصيدة والبيرة التى تعتق أسبوعياً ويؤكل قليلاً من الذرة حيث لا ينمو جيداً مثل السوريجام فى ظل الظروف المناخية الرطبة أما الماعز والأغنام فتنتشر بين قطعان الماشية غير أنها لا تعتبر مصدراً هاماً للاقتصاد لديهم ويمثل صيد السمك مصدراً آخر هام لطعام النوير ومع نهاية الفصل الجاف وبدأ موسم فيضان الأنهار وتكوين المستنقعات يسهل عليهم الصيد الذى يتواجد فى البرك المنتشرة فى أراضيهم.

وموطن النوير غنى بحيوان الصيد غير أن النوير لا يقبل على الصيد بكثرة، فتوجد هناك عديد من أنواع الجاموس والفيلة إلى جانب وفرة من التماسيح غير أن النوير يشعر أن الفقير الذى ليس لديه قطع من الماشية هو الذى يتجه للصيد من أجل الطعام وقد يضطر النوير لصيد الفهود والنمور فى فصل الجفاف حين تهدد تلك الحيوانات مصدر قطعانهم أى أن الصيد فى هذه الحالة من أجل

حماية أنفسهم ، ويعتمدوا فى ذلك على الكلاب والرمح ولا يربى النوير الطيور
كما يعتبرون أن كثرة أكل الطيور البرية وبيضها أمراً غير مقبول.



لا توجد حقوق ملكية دائمة للأرض عند النوير . فاختيار موضع القرية
يحكمها فكرة أن الأرض مشاعة للجميع وأن الملكية الوحيدة المتمسك بها ملكية
قطعان الماشية وهذه الملكية ملكية أسرية أكثر منها فردية ولذا فبعض العائلات
أغنى فى قطعانها من البعض الآخر .

وتتمثل الوحد الاقتصادية الصغرى عند النوير فى المنزل أو النزلة (Iane stead)
حيث يكون من كوخ أو مجموعة صغيرة من الأكواخ وحظيرة
للماشية بنيت جميعها من البوص وطين اللبن وقد تضم النزلة أسرة بيولوجية
واحدة أو ربما تشتمل على أسرة ممتدة تركز على الأباء وعدد من الأبناء مع
عائلاتهم ، أما فى فصل الجفاف فالمعسكرات المؤقتة تشيد من حصر بسيطة

لتكون مجموعة من الأكواخ على هيئة خلية من النحل يعيش بها مجموعات من العائلات المتقاربة.

النظام الاجتماعي :

يربط جميع أفراد القرية أو المعسكر صلة القرابة وهي نفس الرابطة التي تربط كل الأفراد والجماعات التي تصاحب النوير ، فلا يوجد أى شكل آخر للصدقة أما الشخص قريب أو عدو ، وهكذا يستطيع النوير أن يضع أى شخص له احتكاك به فى وضعه الصحيح . ومصطلحات القرابة لدى النوير متعددة ومنها ما يطلق على أفراد المعاشرين للأسرة ذلك إلى جانب الأقارب من نفس العمر أو هؤلاء الذين تربطهم صلات معينة بالأفراد المباشرين للأسرة.

وتنقسم جماعات النوير إلى ثمان أو تسع قبائل كبرى يصل عدد أفراد كل منها إلى خمسة آلاف شخص وإن كان هناك جماعات أصغر عدداً كثيراً من هذا العدد وتمثل القبيلة أكبر وحدة من السكان الذين قطنوا منطقة معينة ويشعروا سوية بالانتماء.

ولا توجد حكومة بين قبائل النوير ومن ثم يعرفوا كشعب أو كأمة فى إطار اشتراكهم فى لغة وحضارة وحدود واحدة ، أى أن التعريف السياسى غير وارد فى هذا الصدد .

وتتكون كل قبيلة من قبائل النوير من عدد العشائر ولكن يوجب دائماً بينهم عشيرة تشعر أنها أعرفهم وأكثرهم تميزاً وهي فى بعض الأحيان وليست دائماً أكبر العشائر . وعلى الرغم من أن لكل عشيرة عدد من أفرادها فى كل قرية إلا أن هناك عشيرة بعينها تشعر أنها هى الأهم فى كل قرية ، وأخرى فى كل ناحية وهلم جراً ومن ثم فهناك من الأشخاص من يستطيع التحدث باسم العشيرة السائدة فى كل ناحية كما هناك من يمكنه التحدث باسم القبيلة ككل . وفى ضوء هذا الواقع نجد بعض الاختلافات الاجتماعية بين الأسر فى كل المناطق حيث ترتب هذه الاختلافات بالمركز أكثر من السادة أو الامتياز فلا يوجد هناك

طبقات اقتصادية تعتمد على ثراء اقتصادى مورث أو اختلاف فى مستوى المعيشة.

ولا يوجد بين قبائل النوير حكومة بمعنى الكلمة أو سلطة منظمة أو أى قانون . إنما يوجد فقط بعض الرجال المؤثرين الذين لديهم نوعاً من السلطة تعتمد على مقدرتهم على القيادة أكثر من اعتمادها على المركز أو الوظيفة الموروثة وفى العادة يأتى القائد من العشيرة البارزة . ويحرص النوير على إظهار الخضوع الحقيقى لكبار السن ولكن فيما عدا ذلك فلا يوجد أى نظام للسيادة أو الخضوع.

ويقيم النوير فى بعض الأحيان أهرامات مختلفة الأحجام وذلك تكريماً لروح إله معين، وقد يصل ارتفاع هذه الأهرامات إلى 50 قدماً ومحيطها إلى 300 قدم . وتبنى الأهرام من طوب اللبن والرماد ويحاط بأنياب الفيلة ، وربما وصلت إليهم فكرة إقامة الأهرام عن طريق مصر الفرعونية ولكن أهرامات النوير على النقيض من الأهرامات المصرية لم تستخدم كمقابر ولم يجند فى بنائها العمال .

والتوقيت الزمنى لدى النوير محدد بمدى قصير جداً أى بمعنى أنهم مثل معظم القبائل البدائية لا يعرفون الوقت (Timeless people) فينظر إلى السنة على كونها مجرد مصطلحات بسلسلة من الأحداث نشأت من فصلين متميزين وقد تستخدم الأقمار والتي تحدد بالدورة القمرية شهرياً فى بعض الأحيان لمعرفة الوقت وعدد الأيام وأى جزء من اليوم وليكن يعرف الوقت أساساً لدى النوير بالإشارة إلى الأنشطة فليس لدى النوير مصطلح يعنى كلمة وقت كما هو معروف فى العالم المتحضر .

اتصال النوير بالعالم الخارجى :

لم يتمخض اتصال النوير بالعالم الخارجى عن تغيير أساسى فى حضارتهم وربما التغيير الجذرى الذى طرأ على حياتهم كان من جراء القضاء

على عشر قطعان الماشية فى خلال القرن العشرين نتيجة لطاعون الماشية الذى انتشر بين الحيوانات بما فيها الأغنام والماعز فى الماضى كانت ثروة العرس تتراوح ما بين 40 ، 60 رأساً أما اليوم فيقدم للعروس نصف هذا العدد أو أقل . وقد دفع نقص الماشية النوير إلى زراعة الذرة بدرجة أوسع من زراعة من قبل وذلك لكى يعوضوا النقص والخسارة فى مورد معيشتهم وربما أدى التوسع فى زراعة هذا المحصول إلى زيادة ارتباط النوير بقراهم أكثر والإقلال من ترحالهم عن ذى قبل .

وتسائل قطعان الماشية لدى النوير ربما يفسر على الأقل سلوكهم الغذائى فقد تعرض رعاة الدنكا لغارات شنها جيرانهم النوير عليهم بينما قبائل أخرى مثل قبائل الشلوك لم تتعرض لغزوهم وحجة النوير فى ذلك هى أنهم لا يغيروا على قبائل لا تمتلك قطعاناً وأن الشلوك لو كان لديهم ماشية لشنوا الغارات عليهم للاستيلاء على ما يملكون .

ومما هو جدير بالذكر أن تجار الرقيق والعاج الذين اخضعوا فيما مضى معظم القبائل السودانية كان تأثيرهم ضعيفاً على النوير فالحكومة المصرية وكذلك حكومة المهدي التى حاولت أن تحكم السودان فى الفترة ما بين عام 1821م ونهاية القرن الماضى لم تتمكن من بسط سيطرتها على النوير وكذلك كان الحال بالنسبة إلى أية سلطة إلى أن تمكن الحكم المصرى السودانى من تأسيس نظام إدارى فى أرض النوير فى عام 1928م وكان هدف هذا النظام الإدارى عدم التدخل فى حياة النوير اليومية ومحاولة الإقلال من غزواتهم على جيرانهم .

والخلاصة أن جماعات النوير تكون مع الدنكا والشلوك المجموعة الشمالية من الجماعات النيلية التى تقطن المنطقة الممتدة من جنوب الخرطوم حول النيل الأبيض وفى مديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية حتى بحيرة كيوجا . ويسكن النوير منطقة المستنقعات من الحوض الأدنى البحر الجبل

والزراف حيث تمتد منطقتهم إلى بحيرة نو وينتشرون شرقاً حتى نهر السوبات
وتقدر مساحة أراضيهم بحوالى 26 ألف ميل2 . وينقسم النوير إلى مجموعتين
أحدهما تعيش غربى بحر الجبل والأخرى فى شرقه.

ويطلق على المجموعة الأخيرة اسم نوير الأحرش (Bush Nuer)
ويعتمد النوير فى حياتهم على المطر فى فصل سقوطه ولكنهم يضطرون لحفر
الآبار فى فصل الجفاف وخاصة فى الأودية النهرية الصغيرة الجافة ويزرعون
الذرة الرفيعة والشامية إلى جانب رعى الماشية وصيد الأسماك والحيوانات
وفرس النهر .

ويمتاز النوير بالرأس الطويلة والقامة الطويلة جداً إذ يصل طول القامة
بينهم إلى 185سم وطول القامة مصحوب دائماً بطول الساقين وضمورهما
بصفة خاصة ويظهرون دائماً فى وقفتهم التقليدية على رجل واحدة مرتكزين
على حربة.

حضارة المايا
(نموذج للممالك القديمة)

يرتبط التطور الحضارى للهنود الأمريكيين بصدرين تاريخيين هامين الأول هى حضارة الأنديز التى استمرت مزدهرة إبان أسرات ألانكا وحتى نهايته. والمصدر الثانى هى حضارة أمريكا الوسطى ذلك الإقليم الذى يتفق مع الهضبة الوسطى جنوب المكسيك لتشمل بوكتان وجواتيمالا وجزءاً من هندوراس فى أمريكا الوسطى. هذان المصدران كانا مركزين لحضارتين بكل ما تعينه كلمة الحضارة من معنى حيث نظم المجتمع على أساس مدنى يرتكز على دولة مدن (City state) أكثر منه نظام عشائرى. وقد ميز هذا النظام كل القبائل الأخرى الهندية الأمريكية .

وقد كون إقليم أمريكا الوسطى وحدة حضارية وإن كان قد حال دون تجانسه الكامل الاختلافات الجغرافية والسيادة السياسية لبعض الإمبراطوريات الصغير التى بسطت نفوذها على مساحة من الأرض غير كأن هذه الدول المنفصلة والتى وجدت فى الإقليم قد شاركت جمعيتها فى الملامح الأساسية لحضارة أمريكا الوسطى.

ومن أشهر هذه الدول أو الممالك مملكة الأزتك (Aztec) والتولتيك (Toltec) اللتان أرتكزتا حول مدينة المكسيك . وقد وجدت ممالك أقل شهرة ولكن اشتملت على بعض التطورات الحضارية المؤثرة فمملكة ميشوا كان (Micheacan) بالمكسيك إلى الشمال والغرب من الأزتك كانت جزءاً من إمبراطورية حربية قوية استطاعت أن تحتفظ بحدودها مع جيرانها ذلك بالإضافة إلى انه قد عثر على عدد من المواقع الأثرية إلى الشرق والجنوب من مدينة المكسيك مثل موقع شولولا (Chclula) الذى يحتوى على عدة مواضع حضارية مشابهة وتوناك (Totnac) على طول ساحل خليج تاباسكو (Tatasco) ومواقع فيراكروز التى تبحث بحثاً أثرياً مستفيضاً وأخيراً فى منطقة

إحراج يوكتان وإقليم بتن (Peten) فى شمال جوتيمالا والمناطق المحيطة



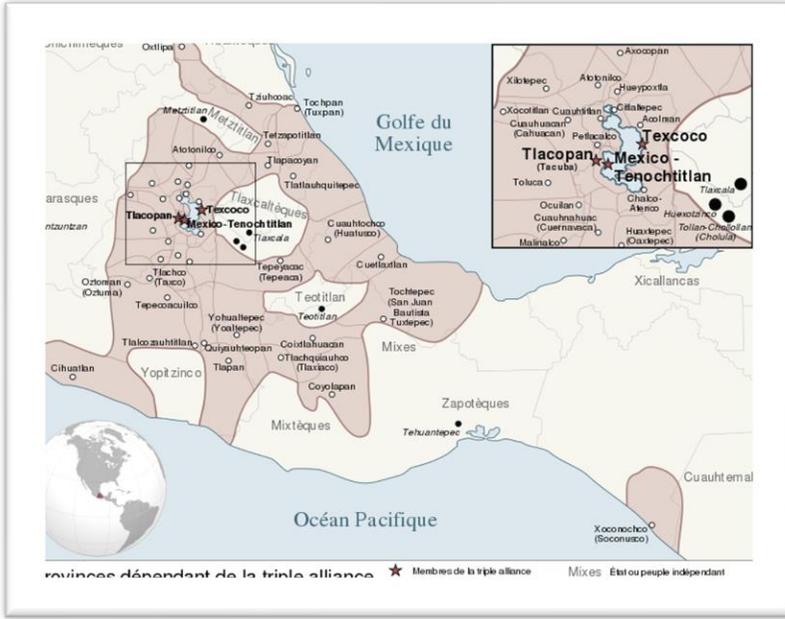
بهندوراس حيث توجد بقايا أهرامات حجرية وسلسلة من معابد المايا .
ومما هو جدير بالذكر أن المواقع الحضارية التي تقع ف الأراضى المنخفضة
للمايا والتي تحمل سمات حضارة أمريكا الوسطى قد نال من اهتمام أساتذة علم
الآثار ما لم ينله منطقة أخرى فى العالم الجديد حتى خلال القرن 16م كما لفتت
أثار مراكز المايا نظر الأسبان فتركوا عديداً من المؤلفات فى حياة المايا حيث
ظلت هذه المؤلفات للأسف عدة قرون لم يعرف قيمتها وهناك مصادر أخرى
تتناول تلخيصاً لتاريخ المايا القديم وللمستندات التاريخية التى خلفها هنود المايا
بشان الحروف الأبجدية الأسبانية والمكتوبة بلغة المايا .
وبعد الغزو الأسبانى لهذه المناطق انتشرت الأمراض الأوربية بين السكان
وحتى اليوم نجد أن انتشار الملاريا والحشرات فى جزء كبير من أراضى
الأحراش المنخفضة قد جعلها تكاد تكون خالية من السكان .

وكننتيجة لذلك نجد أن عدداً كبيراً من بقايا ومخلفات حضارة المايا قد بقيت كمدن مفقودة (lost cites) حتى القرن 19 حينما لفت عديده من الرحلات الاستكشافية نظر العالم الخارجى إلى هذه البقعة الحضارية . وربما كان من أبرز هذه الرحلات وأدلتها تلك التى قام بها جون لويد ستيفسون (John lioyd) فى عامى 1839 و 1841 وقد ذهب جون لويد الأمريكى فى رحلين لهذه المنطقة بصحبة فنان إنجليزى حيث أصدر مؤلفين زودا بعديد من الصور والرسوم التى قام زميله فى الرحلة فودريك وقد كانت هذه المؤلفات هى المسئولة عن إزكاء الروح العلمية للبحث عن حضارة المايا فى كل من أوربا وأمريكا .

وقد ساهمت مراكز أخرى للأبحاث فى إزاحة النقاب عن حضارة المايا مثل الجمعية الأنثروبولوجية التاريخية بالمكسيك (iustituto ce) ومتحف جامعة بنسلفانيا ومركز أبحاث جامعة بوستن بأمريكا الوسطى (The Middle American) و Rescrch Institue of Tnlaue university) والمتحف البريطانى ومتحف التاريخ الطبيعى بشيكاغو .

وقد كانت حضارة المايا مثيرة جداً لعديد من الدرسين الذين تفرغوا لدراستها وتحليل عناصرها فبقايا الأهرامات الكبيرة والمعابد وفيرة وجميلة فى نفس الوقت ، الأمر الذى يدفع الفرد للتساؤل كيف تمكن الهنود الأمريكيين من بتائها فى تلك المناطق الصعبة . وربما أكثر إثارة السمات الذكية لحضارة المايا فنظام التاريخ على الرغم من تعقده إلا أنه كان يرتبط بالدورة الفلكية كما هو الحال فى أى مكان آخر فى العالم ، والكتابة الهيروغرافية التى ارتبطت بالحضارة الكلاسيكية فى شرقى البحر المتوسط ، وفى الرياضة واستخدام الصفر وتغير موضعه العددى قد استخدم قبل أن يعرفه الهنود الأمريكيين وحيث انتقل إلى الحضارة الغربية قبلهم .

ويبدو أن العناصر الأساسية التي كونت الحضارة وقد تمت في المناطق المرتفعة في أمريكا الوسطى حيث أن ضبط المياه والتحكم فيها عن طريق الري والصرف أدى إلى زراعة بدائية ومن ثم وجدت الحضارة المدنية بمقوماتها المناطق المرتفعة أكثر ملائمة لها من المناطق الغابية الواطئة .



غير أن المختصين في دراية المايا يعتقدوا أن أصحاب هذه الحضارة قد طوروا حضارتهم إلى مرحلة النضج في المناطق المدارية . ولكن ليس هناك دليل على أن المايا قد طوروا العناصر الأساسية للحضارة بأنفسهم أو أنهم كانوا سابقين لغيرهم في أمريكا الوسطى لذا فيقترح بعض الباحثين أنه من الأفضل أن ننظر إلى المايا على أنهم يمثلوا مظهر عاماً لحضارة أمريكا الوسطى أكثر من كونهم يمثلوا مستوى ارفع .

ويؤكد أريك تومبسون ذلك فى كتابة عن ازدهار وسقوط حضارة المايا الذى ظهر فى عام 1954 حيث يقول " أنه يعتقد أن حضارة المايا كانت خلاصة شخصية المايا على جانب عناصر أساسية أخرى أقلية خلاقة ذات تصور واسع ونشاط عقلى وأنها بدأت حضارة المايا فى الأراضى المنخفضة وحافظت عليها عبر الزمن لعدة مئات من السنين " .

وقد شغلت حضارة المايا القديمة ثلاث مناطق أيكولوجية متميزة . المنطقة الجنوبية وهى منطقة جبلية تتكون من الأراضى المرتفعة فى جواتيمالا والمناطق المجاورة لها كذلك الإقليم المشابهة فى سلفادور . هنا يعيش السكان الأصليون المتحدثين بلغة المايا فى أعداد كبيرة تفوق أعدادهم فى المناطق المنخفضة . وهذه المنطقة لم تكن منطقة سيادة الأهرامات الكبيرة أو بناء المعابد ولذا لم تكن هى بؤرة أبحاث الأركولوجيين . أما المنطقة الثانية وهى المنطقة الوسطى وتشمل إقليم الأراضى كالمخفضة والذى يتوسطه إقليم بيتون (Peten district) فى جواتيمالا وهذه المنطقة خالية الآن من السكان تقريباً ولكنها فى وقت من الأوقات كان يوجد بها أكبر مدن حضارة المايا . أما القسم الشمالى فىكون شبه جزيرة تشمل دول المكسيك فى كامبشى (Cameche) ويوكتان وكوينتانا رو (Quintana Reo) وإذا كانت مبانى مدن المايا الكلاسيكية قد انحسرت فى الإقليم الأوسط فإنها قد انتشرت مؤخراً إلى المنطقة الأخيرة هى أكثر المناطق التى عرفها الباحثون وذلك لأنها المنطقة الأولى التى خلف عنها الأسباب معلومات كاملة .

وتقع كل من المنطقتين الوسطى والشمالية فى نطاق الغابات المدارية كما أن تربتها رقيقة تتركز فوق أساس من الصخور الجيرية والمنطقة الوسطى أكثر ارتفاعاً قليلاً من المنطقة الشمالية وأكثر تعرية ومن ثم تجرى بها الروافد المائية وتتكون البحيرات الضحلة . وتسقط الأمطار بغزارة بالقرب من المرتفعات فى الفصل المطير بينما يستمر فصل الجفاف من شهر يناير إلى شهر مايو وتقل

الأمطار تدريجياً كلما اتجهنا صوب الإقليم الشمالى كما تنبسط الأرض غير أنه بسبب مسامية الصخور الجيرية التى تمثل القاعدة الصخرية فإن الأنهار تختفى وتصبح مصدر المياه الوحيد هى البحيرات العميقة (Deep Seols) والمعروفة باسم (Cenctes) والتى تظهر حيث توجد انكسارات أو شقوق فى الحجر الجيرى وحيث تظهر المياه الباطنية ويبدو أن كل الإقليم المنخفض لا يصلح لتطور راقى للزراعة .



فالحياة الحيوانية فى الأحراش كانت أكثر وفرة من الأراضى المرتفعة إذ ضمنت تلك الحياة حيوان الجاجور والقروود والنمور إلى جانب عدد كبير من أنواع الطيور التى كانت تمثل مصدراً هاماً للصيد ذلك بالإضافة إلى وجود عديد من الفاكهة البرية غير انه كان من الصعب جداً زيادة السكان أو إيجاد طعام كاف كما هو الحال فى المناطق المرتفعة حيث التحكم فى المياه من أجل الزراعة وقد زرع أصحاب حضارة المايا نباتات تشبه تلك التى قام بزراعتها غيرهم من الهنود الأمريكيين مثل الذرة والبقول والقرع وهى المحاصيل التى زرعها الأمريكيون الكلاسيك وإن كانت الذرة تعتبر أهم المحاصيل الثلاثة .

أما النباتات الجذرية الأمريكية فهي البطاطا واليام وغيرها بالإضافة إلى
عديد من التوابل ولاسيما الفلفل الشهي والفانليا على جانب الكاكاو والقطن والتبغ
أما الغابات فكانت مصدراً للأخشاب الصلبة والأوراق التي صنعت منها الخيوط
والنحل ولعدد كبير من الحشرات .

ويرجع تاريخ هذه المرحلة إلى الفترة ما بين عامي 500 ق م و 300 م . وهي
الفترة التي تعرف باسم فترة التكوين (Formative) والتي صاحبت مظاهر
خاصة لحضارة أمريكا الوسطى مثل تشيد الأهرامات ومعرفة الهيروغرافية ،
والتاريخ وصناعة الفخار والتماثيل وبعض رسم صور الحيوانات كالثعابين
والجاجور .

أما الفترة الكلاسيكية (Classic Pariod) فهي الوقت الذي انتشرت فيه
حضارة المايا انتشاراً واسعاً من منطقة تركزها الوسطى وتبدأ من 300م لتصل
إلى قمتها في عام 800 م . وليعقبها بعد ذلك فترة من الاضمحلال السياسي تستمر
من عام 800م على عام 925م وقد شهدت يوكتان في ذلك الوقت خضوعها
للغزاة المكسيكس الشماليين أو التولتك (Toltecs) حيث تمكنت حضارة المايا
من استعادة ازدهارها تدريجياً مرة أخرى .

ولكن حدث في القرن الخامس عشر حروب محلية أدت إلى اضمحلال
الحضارة مرة أخرى ومن ثم فمع وصول الأسبان إلى يوكتان في عام 1527 لم
يكن هناك أي وحدة أو إمبراطورية أو أي اتحاد فدرالي في تلك المناطق . وربما
كانت أسباب انهيار الإمبراطورية القديمة

ومن ثم فازدهار وانهيار حضارة المايا الكلاسيكية وحضارتها الشمالية إنما
ارتبط بتغير قوة السلطة السياسية على نطاق كبير هذا هو أبسط النتائج إلى جانب
أمور أخرى قد تتصل بإجهاد التربة أو ثورة الفلاحين أو فشل القادة أو أي أسباب
أخرى قد تؤثر في السكان ككل قد حدثت وليس لنا بها معلم .

وقد كانت حياة الأسرة العادية فى بوكتان فى خلال الوقت الأخير من حضارة المايا يشبه تلك الحياة التى وجلىن منذ آلاف السنين . فمظاهر الحياة المدنية الراقية فى حضارة المايا والتى جذبت الاهتمام مثل فن العمارة والتاريخ والكتابة وفن الرسم كانت من إنتاج متخصصين اعتمدوا فى حرفتهم على كتواجد طبقة عليا من أفراد الحكومة البيروقراطية .

فالاهتمام بالأساس للفلاح فى حضارة المايا انحصر فى حقل الحبوب إذ أن الذرة تمثل حوالى 80% حالياً من غذاء المايا الحديث فى بوكتان وربما كان نفس الوضع على الأقل موجود قبل وفود الأسباب حيث كان يوجد تنوعاً أقل من الأغذية الزراعية . والعمليات الزراعية كانت مشابهة لتلك الموجودة فى المناطق المدارية الأخرى والتى تتضمن قطع الأشجار من المنطقة ثم حرق أخشابها وإزالتها بعد جفافها م الزراعة والحصد لمدة عامين أو ثلاثة لتترك الأرض بوراً بعد ذلك لفترة قد تطول أو تقصر ولكن لا تقل بأى حال من الأحوال عن عشرة سنوات فالأشجار قد تهذب أو تقطع فى الفصل المطير بينما تحرق مع نهاية الفصل الجاف حيث يحدد يوم الحرق عن طريق القساوسة وذلك بعد إقامة شعائر هامة . ففى كل عام تنظف كل أسرة وتحرق حقل حبوب جديد حتى تستطيع أن تستمر فى حياتها مع الحرق الذى تم قبل ذلك منذ عامين أو ثلاثة .

فتبعاً لدراسة الدكتور مورلى (Dr. Morley) أن المتوسط السنوى لعمل الأسرة بمفردها 48 يوماً وهو متوسط يسمح بوجوده وقت فراغ كبير للحكام الوطنيين أو القساوسة أو الغزاة الأسباب فيما بعد .

وقد كان منزل المايا بسيطاً فى تركيبه فهو قائم على عمود ويتكون من حجرة واحدة وذلك على النقيض من المباني الضخمة التى كان على هؤلاء الفلاحين البسطاء أن يتعاونوا فى بنائها . ومنازل المايا كانت متناثرة على نطاق واسع وأنها كانت تتجمع فى أفضل الأحوال فى أكواخ صغيرة بمعنى أنه لم يوجد لديهم محلة حضرية بمعنى الكلمة كما كان هو الحال فى (Teotihuacán) وفى

المواضع الأخرى لأمريكا الوسطى ربما كان السبب فى ذلك هو طبيعة النظام الزراعى وما ارتبط به من مشاكل ترك الأرض بوراً ومن ثم فما يسمى باسم مدن المايا فقد كانت عبارة عن مراكز مدينة فقط تضم المعابد والأهرامات وصالات اللعب وربما أيضاً منازل بعض عليه القوم .

الطعام الذى كانوا يتناولونه هو نفس الطعام الذى يأكلونه اليوم ويتكون من ذرة مسلوقة فى المياه ومطحون وحينما ينقع يتحلل فى المياه ليكون مشروباً يعرف باسم (Pozzle) وهذا هو ما يتناوله كشراب أو طعام فى العادة . ومن عاداتهم أن يتناولوا قبل الغروب بساعة وجبة تسمى (Tortillas) وفيها يأكلون أطباقاً معينة من الفلفل المجروش المذاب فى قليل من الماء وعليه بعض الملح ذلك بالإضافة إلى بعض فو الأرض المغلى ذات اللون الأسود



أما الملابس اليومية لعامة الشعب فقد كانت بسيطة حيث ارتدى الرجال بنظلون قطنى وفى بعض الأحيان قطعة كبيرة من القماش مربعة تربط حول الأكتاف مع ارتدا صنادل من الجلد ، بينما تلبس النساء أردية قطنية بها فتحات بسيطة للرأس والأذرع ويترك الرجال شعرهم ليطول حيث يصفونه على شكل ضفائر كما تحرق خصلة الشعر فى قمة الرأس لتصبح صلعا أما شعر النساء

فيختلف في نمطه كثيراً مع وجود فرق واضح بين تصفيفه لدى الفتيات والسيدات المتزوجات وتستخدم الوشم ودهان الجسد للترزين الشخصي . وملابس النبلاء والقساوسة اتخذت أساساً نفس النمط غير أنها كانت أكثر فخامة وزخرفة وكما هو الحال عند الأزتك وغيرهم فقد صنع روب الاحتفالات من ريش زاهى الألوان ذلك بالإضافة إلى قلنصوة الاحتفالات التى صنعت لتمثل رأس الجاجور أو الطيور أو الثعبان والتي كانت تمثل جزءاً هاماً فى تقاليدهم وعاداتهم . وقد تضمنت أدوات الزينة تزيينات متعددة للأذن والأنف والشفاة .



أما المرض فقد اعتقد أصحاب حضارة المايا أنه من فعل الأرواح نتيجة لبعض الأعمال السيئة التى قام بها الشخص المريض وفى مثل هذه الحالة يحاول الشامانون علاج المرضى عن طريق الصلوات والشعائر ووصف بعض الأعشاب . والموت شئ مخيف للمايا ، ويقام المآتم والأحزان بواسطة أقارب المتوفى على شكل مهيب وتستمر عدة أيام ، وعادات الدفن بين عامة الناس كانت بسيطة حيث تلف الجثة فى القماش ويملاً بالذرة والخرز وبعد ذلك يوارى

تحت المنزل . أما أبرز الحكام فيدفنوا فى نصب حجية تحت الأهرامات وحيث
توضع معهم كميات كبيرة من الأشياء القيمة .

أما عن المعتقدات العامة لدى المايا فقد تضمنت عدداً كبيراً من المعتقدات فى
الآلهة الطبيعية على وجه الخصوص وذلك إذا ما كان اعتمدنا فى ذلك على المايا



الحديثون التى لها تأثير على المطر والخصوبة فخالق الكون هو الإله هو ناب
هو (Hunab hu) صنع الإنسان وإخراجه من الحب .

ويبدو أن هذا الإله ظل بعيداً عن أمور الدنيا وأن ابنه ايتزامنا (Itzamna) قد
تولى هذا العمل مع الإله زوس (Zeus) وقد ذكر أحد الباحثين أن المايا اعتقدوا
فى عدد من الفيضانات التى دمرت العالم والتى تشبه نظائرها التى وجدت فى
أديان العالم الأخرى . ويعتقد هنود المايا الذين يعيشون الآن فى شمال بوكتان
أن هناك ثلاثة عوالم سابقة لعالمهم وإن العالم الحالى سوف يفرقه الفيضان يوماً
ما .

وتتضمن ديانة المايا ثنائية الخير والشر فالإلهة الخير تجلب المطر وتزيد من خصوبة الأرض وتعطى الحظ السعيد أما إلهة كالشر فتسبب الموت والمرض والمجاعة والجفاف وهلم جرا وهكذا تعتمد كل المظاهر الطبيعية وأيضاً روح الإنسان على حصيلة الصراع بين ثنائية الخير والشر . وقد ذكر بعض الباحثين أن المايا كان لديهم فكرة وجود الجنة والنار ولكن غير مؤكد أن هذه الكرة مرتبطة بوصول المسحية لهذه الحضارة.

والتضحيات الإنسانية كما تبينها صور هنود المايا كانت مشابهة لتلك الموجودة لدى الأزتك كما كانت من الطقوس العامة التي تؤدي بواسطة الكهنة فكانت الضحية وهي غالباً ما تكون من أسرى الحروب تجرد من ملابسها وتدهن باللون الأزرق ثم يوضع فوق الرأس رداءً خاصاً ويتقدم أربعة من مساعدي الكاهن ويمسك كل منهم بأحد أطرافه ليضعوه فوق المذبح ثم يقوم الكاهن بشق صدره ويستخرج قلبه ليقوم بعد ذلك برش الدم على تمثال الإلهة الذي تقدم لأجله الضحية ثم يقوم بإزالة جلد الضحية لتدثر به بعد ذلك ويؤدي رقصة معينة تتفق مع تقاليد القبيلة . ومن أهم مظاهر التضحيات ما كان يتم عند بئر التضحية الشهير لدى هنود اتشهين أنزا (Chiehentza) وهو ما يعرفه الزوار في الوقت الحاضر . ويقوم الهنود بوثق الضحية التي عبارة عن امرأة أو طفل أو رجل ثم يلقوا بها في البئر العميق وبصحبتها عدد كبير من أدوات الزينة والأواني الفخارية والبخور والأشياء القيمة . وقد قام متحف هارفارد بتخفيف البئر في الفترة ما بين عامي 1905 – 1908 حيث استعادوا الأشياء الذهبية والنحاسية التي ألقيت من قبل وأحضروها من كاليفورنيا جنوباً ومدينة مكسيكو شمالاً .

والتقويم الذي كان شديد التعقيد كان في نفس الوقت أكثر دقة من تقويمنا في احتساب العام الشمسي فبالإضافة إلى مظاهر العد الآلى فإن فلسفة الزمن وارتباطها بالإلهة والطقوس تبين لنا إدراكهم للزمن كموضوع هام في حياتهم

العقلة ومن أهم مظاهر بقايا هنود المايا تلك النصب الميجاليثية واتى تعرف باسم (Stalae) بما عليها من نصوص هيروغرافية .

وقد قام هنود المايا بالربط بين أقسام الزمن والإلهة ذات الأشكال البشرية وذلك بطريقة تشبه إلى حد ما الفكرة التي تكن وراء أسما أيام الأسبوع لدينا مثل يوم ودن (Weden) الذى يعرف بالإنجليزية (Wedenscay) أو يوم (Thor) بالإنجليزية (Thnrday) وهكذا . غير أن تقسيمهم للزمن وليس تقسيمهم للأيام فقط كانت فى ضوء هذا المفهوم .

إن فكرة هنود المايا عن الزمن والمكان لم تكن فكرة تطويرية أو حتى تاريخية فى المقام الأول فالزمن يبدو أنه يرجع إلى الوراء إلى ما لا نهاية كما أنه يمتد فى المستقبل لى ما لا نهاية أيضاً غير أن الدورات الزمنية تتكرر فقد كانت الأزمنة القديمة تتنوع وتختلف حسب الإلهة المرتبطة بها وبعبارة أخرى فإنه عندما يكون إلهة فترة معينة فى وضع مماثل لآلة فترة أخرى فإن الربط بين الخير والشر كون بنفس طريقة ارتباط الإلهة وبهذا يمكن النبأ بأمر المستقبل وقد عرفت ودورة الزمن التى تهتم المتنبئين باسم كانون (Katun) وهى فترة تصل إلى 26 عاماً وهى الفترة التى يتمكن فيها إله فيها وإله العدد على مدى دورة مدتها 13 يوماً من تحمل الأعباء معاً وبهذا فإن الأحداث والحظوظ وكذلك أسما الإلهة كانت تتشابه من كانوا إلى آخر

وكان لهنود المايا كما كان لهنود الأزتك تقويمان يستخدمان فى الحياة اليومية احدهما ويدعى الباب (Haab) وهو يشبه إلى حد كبير تقويمنا الذى يعتبر العام 365 يوماً ، وكان هذا التقويم يتكون من 18 شهراً مكل منها 20 يوماً (360 يوماً) بالإضافة إلى 5 أيام كانت تعتبر أيام كانت تعتبر أيام نحس يجب أن نتوقف فيها جميع الأنشطة ولم يضيفوا يوماً للسنة الكبيسة غير أن اختلاف السنة عن السنة الشمسية كان يحتسب بعناية فائقة حتى يمكن أن يكون التقويم صحياً .

أما التقويم الثانی المعروف باسم (tzo kin) عد الأيام فهو عبارة عن 360 يوماً (أى عام وهو تعلق بنمط الحياة الدينية . وكان هناك 20 اسماً للأيام كذلك للإلهة) مرتبة بحيث تنفق مع 13 ثم يبدأ اليوم الرابع عش للأيام برقم 1 من جديد . واحتساب هذه الدورات التي تتكون من عشرين رقماً وعشرين اسماً كانت تستغرق 360 يوماً قبل أن يعود الأمر مرة أخرى إلى رقم واحد وإلى الاسم الأول لليوم كما قاموا بإعداد الحسابات للتقويمين بحيث يبدو اليوم الأول من تقويم هاب الذي

يعتبر

العام

مكوناً

من

356

يوماً

واليوم

الأول

من

تقويم

توز

لكن الذي



يعتبر العام 360 يوماً بحيث موعد اليومان كل 52 عاماً .

ولقد كان علماء الرياضة من هنود المايا على صلة وثيقة بالملاحظات الفلكية وليس لدينا أى سجلات من هنود المنيا لهؤلاء الناس . كانت الوحدات الرياضية المستخدمة هي الأحاد والخمسات والعشرينات ، وكانوا يرمزون إليها بالنقط للأحاد بالشرط للخمسات وبالمواضع للعشرينات ومضاعفاتها وكان العد

الموضوعى وعلامة الصفر التى هى بالضرورة ظاهرة من ظواهر العد الموضوعى تعتبر أعظم عمل عقلى فى العالم الجديد ، ولم يحدث هذا فى مكان آخر من العالم إلا فى الهند حيث اخترع الصفر الذى جاء إلى أوروبا عن طريق العرب .

لقد كانت قبائل الهنود فى أمريكا الوسطى هى القبائل الوحيدة فى العالم الجديد التى نجحت فى اختراع الكتابة أن الكتابة الهيروغرافية شأنها فى ذلك شأن الرياضيات والفلك كان يستخدمها الكهنة فى النصوص والأمور الدينية أكثر من استخدامها لها فى الأمور الدنياوية ، وكانت الكتب كتب مقدسة كما كان الحال فى عالم البحر المتوسط القديم ولدينا اليوم حوالى 400 محظوظاً وطناً جاءتنا من المكسيك الوسطى .

أما كتب هنود المايا فلم يصلنا غير ثلاثة كتب وذلك بسبب رطوبة المناخ فى بيئتهم . لقد كان هنود المايا ينظرون إلى كتبهم المقدسة نظرة جادة وذلك ما يقوله أحد الباحثين " لقد استخدمن هؤلاء الناس حروفاً خاصة فى تدوين كتبهم وشئونهم القديمة وعلومهم ، كما استعانوا بالرسومات التوضيحية وبالرموز الخاصة لفهم أمورهم وإتاحة الفرصة لغيرهم لتعلمها وفهمها . ولقد وحدنا عدداً كبيراً من الكتب بهذه الحروف ، ونظراً لأنها لم تحتوى على أمر من أمور الخرافات والأكاذيب وأعمال الشيطان فد أحرقناها جمعياً وهو أمر أسفوا له إلى درجة كبيرة وسبب لهم حزناً لا حد له " .

ويبدو أن هنود المايا كان لهم ملامح مميزة فى العالم الجيد وذلك من ناحية إنجازاتهم الفنية فقد شاركوا فى فن الرسم وفنون العمارة بصورة مشابهة لغيره من أصحاب حضارة أمريكا الوسطى ولكن قد اتفق الباحثون فى حضارة المايا على أن لهم ذوقاً رفيعاً فى النحت والرسم كما أن أبنيتهم الحجرية لفخمة كانت أكبر من أى مثيل لها فى أى مكان آخر .

ولعل أهم ما يميز الفن المعماري لهنود المايا هو استخدام القنطرة أو العقد البارزة حقيقة أن السكان الآخرين في أمريكا الوسطى قد شيدوا أبنية حجرية ذات أسقف أفقية صنعت من السعف ومدخل على شكل مربع إلا أن مباني المايا تعطي انطباعاً مختلفاً وذلك بسبب وجود العقد أو القنطرة البارزة .

والفن التصويري للمايا كان يمارس بأسلوب ثابت غير أنه كان مليئاً بالحيوية والحياة وكان يختلف عن ذلك الذين وجد بين الأزتكا أما عن الرسم فكان رمزي أكثر منه تمثيلي ومن ثم فعلى الرغم من مهارة الفن عند هنود المايا إلا أن أعمالهم لا تحمل الفن بمعنى الكلمة وذلك لأنهم لم يكن غرضهم بطبيعة الحال الاتجاهات الحديثة لوظيفة الفن .

والرسم عند المايا كان فناً مقدساً وكان تزيين أكثر منه تعليمي ، وربما أهم من ذلك كله أنه لم يكن قاصر على فئة بعينها أو أنه عاماً بين الناس إنما كان مارس من أجل الإلهة وربما لم يرى هذا الفن أحداً فيما عدا الفنان ذاته أو أكبر القساوسة الذي يسمح لهم بدخول المعابد .

ولهذا ما أن ترك الأسبان أي مجموعة مهزومة كان عليهم أن عدوا الكرة على مجموعة أخرى وهكذا . فحتى عام 1545 أي بعد 15 عاماً من المحاولة الأولى للغز تمكن الأسبان من السيطرة حقيقة على أراضي يوكانان من قاعدة مريداً (Marida) التي تمثل الآن عاصمة الدولة ونظماً لأنه كان من الصعب السيطرة على كل هنود يوكانان لذا فقد قسموا بين الأسبان فما يسمى باسم (Encomiendas) حيث كانوا يؤدون الخدمات إلى هؤلاء القادة في نظير حمايتهم وتعلمهم الكاثوليكية والمواطنة .

ولم يتمكن الأسبان مطلقاً من استغلال الإمكانيات الزراعية في يوكنان تحت نظامهم الذى وصفوه الإقطاعيات (Encomiendas) فقد كان الأساس الاقتصادى للمحلات الأسبانية الأولى يعتمد على تربية الماشية ولكن لم تمحض عن ذلك أى زيادة كبيرة فى السكان الأسبان أو أى رخاء حقيقى ، إذ أن الهنود المتناثرين كان من الصعب حكم وحتى فى عام 1847 قامت ثورة ضد حكم الرجل الأبيض والتي عرفت باسم حرب الطبقات (war of the casts) والتي نجحت تقريباً وحتى بداية القرن الحالى عندما بدأ نظام المزارع فى يوكنان أو على الأقل فى مريدا (Mirada) والإقليم المحيط بها دخلت هذا الجزء من العالم فى نطا التجارة العالمية الحديثة . حيث يزرع فى هذه المزارع أنواعاً من نبات (Yucca) التى تعطى خيوطاً خشنة تستخدم فى عمل الأحبال والدوبار. هذا



وتعد يوكنان الآن أكبر مصدر لهذه السلعة.

وإعداد هنود المايا الذين لم يفروا من مناطق تواجدهم كان تأثيرهم بطيئاً بالحضارة الأسبانية غير أن إدخال نظام المزارع فى أراضيهم قد دفع بصورة عامة إلى تزايد السكان وتقدمهم الاقتصادى وكان نتيجة مباشرة لذلك تحول معظم محلات هنود المايا الريفية صوب الحضارية.

المراجع :

1. Barton, R.F., The Kalingas: Their institution and Customs law, Chicago, 1949.
2. Keesing, F.M., Taming philippine Headhunters, Stanford, 1934.
3. Kroeber, A.L., People of the philippines, Newyork, 1958.
4. Worester, D.C., headhunters of northern Luzon, National geographic Magazine, Vol, 23, No. 9, 1912.
5. Gann, T.W.F., Maya cities, A record of exploration and adventure in Middle america, London, 1927.
6. Gann, T.W.F., History of Mayas, New York, 1931.
7. Hay, C.L., The Maya and their Neighbors, New York, 1940.
8. Stephens, J.L., incidents of Travel in central america, chiapas and Yucatan, New York, 1841.
9. Thompson, J.E., The rise and fall of my a civilization, Normon, Okla, 1954.

10. Bennett, W.C., The archeology of the central andes, in J.H., Steward handbook of South american landibus, Washington, 1946.
11. Bennett, W.C., andean culture history, american Muesum of natural history, Handbook No. 5. New York, 1949.
12. James, P.E., Latin america, New York, 1942.
13. Means, P.A., ancient civilization of Andes, N.Y, 1931.

الفصل السابع

المجتمعات الزراعية

تقوم المجتمعات الزراعية فى كثير من مناطق العالم ، وتشترك جميعها بغض النظر على طريقة الزراعة المتبعة بها ونوعها فى كونها جماعات مرتبطة بفلاحة الأرض واستغلال مورد ماء والعيش فى محلات عمرانية لها صفة الدوام والاستقرار وإن اختلفت فى تركيبها ونظام تخطيطها وشكلها العام .

ولا نعرف على وجه الدقة متى قامت المجتمعات الزراعية ولكن من المؤكد أن أولى الجماعات التى عرفت الاستقرار الزراعى ظهرت فى مصر والعراق وذلك فى غضون الألف الخامسة ق. م كذلك تمتعت أودية الهند الكبرى بمميزات الاستقرار الجديد المرتبطة بأمتن مورد غذائى وأكثر انتظاماً وأوفر من المورد الذى كفلته الجمع والالتقاط والصيد .

وكما انتشرت الزراعة من جنوب غربى آسيا ومصر إلى قارة أوراسيا ، ويبدو أن الساحل الشرقى للبحر المتوسط ولاسيما عن طريق سوريا وفينيقيا كان من أهم الطرق التى اتبعت فى انتشار حضارة الزراعة صوب الغرب ، وربما بدأ هذا الانتشار من جنوب غرب آسيا قبل بداية الألف الرابعة ق. م حيث استغرق ما يقرب من ألف عام فى الوصول إلى فرنسا وأسبانيا .

وكما انتشرت حضارة الزراعة عن طريق جنوب غرب آسيا إلى أوروبا انتشرت أيضاً عن طريق شمالى أفريقيا إلى الساحل الغربى لأوروبا والجزر البريطانية كما تكمن بعض المزارعين فى جنوب شرق أوروبا من حمل الحضارة الزراعية إلى بولندا والدانمارك والسويد فى نفس الوقت الذى وصل فيه المزارعون الأوائل إلى بريطانيا .

وقد انتشرت الزراعة بعد ذلك إلى أطراف غابات أوراسيا الواسعة وذلك بعد تطهيرها وذلك عن طريق مزارعى الفولجا والأراضى المرتفعة المحيطة بها ، هؤلاء المزارعون أصحاب حضارة فاتيانوفو (Fatyanovo Culture) الذين توغّلوا إلى وسط روسيا تحت ضغط الشعوب البونطية.

أما عن المجتمعات الزراعية فى العالم الجديد فمن المحتمل أن تكون الفكرة العامة للزراعة قد وصلت إلى هذه البقاع عن طريق قارة أوراسيا ولكن لا يمنع هذا من افتراض نشأة مستقلة للزراعة فى العالم الجديد ، إذ أن من المؤكد أن أدوات وطرق الزراعة الأمريكية ذات تقاليد ونشأة مستقلة . وقد نشأت هناك الزراعة المختلطة وكانت دعامتها زراعة بعض المحاصيل كالذرة والقرع والفول وتربية حيوانى الألباكا واللاما الذى استخدم فى حمل الأثقال وفى أكل لحومه والاستفادة بالحصول على ألبانها.

وهكذا على الرغم من أن المجتمعات الزراعية قد استطاعت مع نهاية العصر الحجرى الحديث أى منذ ما يقرب من 4000 سنة مضت أن تعمر مساحات واسعة من العالمين القديم والجديد إلا أن مساحات واسعة من اليابس ظلت بعيد عن العمران البشرى شأنها فى ذلك شأن مناطق العزلة أو مناطق الصعوبة التى لم ترحب بقدوم الإنسان ومن ثم فقد تجنب الذهاب إليها.

ولكن مع تقدم الإنسان الحضارى واتساع مداركه عن الزراعة تمكن من تحويل مساحات شاسعة من الغابات والمراعى إلى أراضى زراعية وذلك لنتيجة الضغط السكانى بسبب زيادة أعدادهم ومن ثم لم يعد أمام الرعاة والصيادين القدرة على أن يحتفظوا بمراعيهم وغاباتهم أمام زحف الزراع وكان النتيجة الطبيعية لذلك هو تغير الغطاء النباتى فى كثير من بقاع العالم .

وتتوقف الآن رفاهية الملايين من البشر فى جميع بلدان العالم على مستوى تطور الزراعة والأشكال الاجتماعية لتنظيمها ونصيبيها من التطورات العلمية الحديثة . فمن حيث عدد السكان المشتغلين بالزراعة نجد أن عددهم يفوق عدد المشتغلين بأى حرفة أخرى حيث يعمل فى الزراعة أغلبية سكان العالم فتبعاً للإحصاءات نجد أن نسبة سكان الريف يكونون 57% من جملة سكان العالم البالغ عددهم حوالى 7,5 مليار نسمة بينما يكون سكان الريف حوالى

45% من جملة سكان العالم وتعيش أغلبية سكان المجتمعات الريفية على الزراعة مباشرة أو على أعمال أخرى مرتبطة بها .

ويلعب النظام الاجتماعى دوراً هاماً فى تطوير الزراعة إذ أن هذا النظام يحدد العلاقة التى تربط بين الناس فى عملية إنتاج وتوزيع المنتجات فى البلاد الرأسمالية مثلاً يمتلك الإقطاعيون معظم الأراضى الزراعية ووسائل الإنتاج ومن ثم فيعمل ملايين من الأجراء لصالح هؤلاء المستغلين ، كما أن الزراعة فى بعض البلدان الرأسمالية قد تعانى استغلالاً شديداً من قبل الاحتكارات المسيطرة على الصناعة والتجارة والمواصلات الأمر الذى قد يترتب عليه فرض أسعار بخسه على المنتجات الزراعية وأسعار عالية على المنتجات الصناعية التى يشتريها الفلاح فى الولايات المتحدة ارتفع سعر البضائع التى كان يشتريها المزارعون فى الفترة ما بين 1967 – 1991 بنسبة 45% بينما انخفض سعر المنتجات الزراعية فى الفترة نفسها بنسبة 38% .

تمارس الزراعة بطرق متعددة كما أن أنواعها تختلف من مكان لآخر على سطح الأرض وذلك تبعاً لقدرة الإنسان على استغلال الأرض وتكيفه مع بيئته وأسلوب حياته . ومعنى ذلك أن المجتمعات الزراعية تختلف فى عدد سكانها وذلك حسب نوعية الزراعة ونمطها ومن ثم فقد تصنف الزراعة إلى عديد من الأنماط تختلف فيها مساحة الرقعة الزراعية التى يقوم الإنسان بزراعتها كما تختلف كثافة الأيدي العاملة ونوع المحصول والغرض من إنتاجه والنظام الاجتماعى ، كما تختلف أيضاً من حيث الثبات والاستقرار .
أولاً : الزراعة البسيطة :

يطلق عليها البعض اسم الزراعة البدائية وذلك على أساس الأدوات الأولية المستخدمة فى الزراعة التى تتمثل فى الفأس اليدوية وفى بعض الأحيان العصا كما يطلق عليها البعض الآخر اسم الزراعة المعيشية البدائية (Primitive subsistence agriculture) وذلك على أساس ان الغرض

الرئيسى من هذه الزراعة سواء أكانت متنقلة أو ثابتة هو سد القوت ، وبعبارة أخرى فهذا النوع من الزراعة يتسم بزراعة الكفاف وفيها لا يزيد مجهود الإنسان فى حصوله على المواد الغذائية عن المجهود البشرى وعدد قليل من الحيوانات بحيث لا يسمح الإنتاج بأى فائض.

وتسود الزراعة البسيطة فى الأقاليم المدارية المطيرة بقرتى أفريقيا وأمريكا الجنوبية وجنوب الملايو وغينيا الجديدة وهنا نجد أن العامل الرئيسى المشكل لهذا النوع من الزراعة هو التربة التى لا تسمح بزراعة الأرض لعدة سنوات متتالية يدفع الزراع فى هذه الأقاليم إلى الانتقال من منطقة إلى أخرى يقطعون أشجارها ويحرقون أخشابها وأعشابها لإخصاب التربة ثم ممارسة الزراعة .

وقد يعود إلى المنطقة بعد مضى عدة سنوات تكون فيها قد استعادت خصوبتها وتقوم الجماعات الزراعية هنا بزراعة الذرة الرفيعة والدخن والنباتات الجذرية والفواكه وخاصة الموز . وتقوم الزراعة على المطر ، ولا يوجد بها نظاماً لملكية الأرض حيث أن الأرض ملكاً للجميع ومن العوامل التى شجعت على انتشار الزراعة البسيطة المتنقلة إتباع الأساليب الأولية فى الزراعة ونقص الأسمدة ، وتعرض الزراعات لقطعان الفيلة مما يؤدي إلى تلفها واضطرار الجماعات الزراعية إلى الارتحال ذلك بالإضافة إلى انتشار الأوبئة والأمراض .

وتسكن الجماعات الزراعية هذا فى محلات عمرانية صغيرة تتكون كل منها من مجموعة من الأكواخ المبينة من أغصان الأشجار فى وسط الأراضى المزروعة .

ثانياً : الزراعة الكثيفة :

تعرف الزراعة هنا بالكثافة بالنظر على عاملين أولهما كثرة الأيدي العاملة واتخامها فى المنطقة الزراعية وثانيها ضخامة رأس المال أو كثافة رأس

المال ومعنى ذلك أن الزراعة الكثيفة يمكن أن تقسم إلة نوعين النوع الأول وتتمثل فى المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة حيث تشتد كثافة السكان على الأرض ومن ثم تصبح الملكيات الزراعية قزمية صغيرة وتفتتت بين الأفراد وتكون النتيجة انخفاض المستوى المعيشى للفلاح بسبب قلة دخله رغم أن غلة الفدان تصل إلى أقصى درجة إنتاجية بسبب كثافة العمل . أما النوع الثانى فتنتم الزراعة فيه باستخدام الوسائل العملية الحديثة والآلات والبذور المنتقاة وذلك نتيجة لوفرة رأس المال ، وكل هذه العوامل تعمل على رفع غلة الفدان غير أن كثافة السكان فى ظل هذا النوع من الزراعة الراقية لا يصل بأى حال من الأحوال على درجة كثافة السكان فى النوع الأول من الزراعة . ويوجد هذا النوع فى جنوب غرب أوروبا .

وتنتشر الزراعة الكثيفة فى مناطق كثيرة بالعالم القديم فتوجد فى الأراضى الصينية فى حوض نهر اليانجتسى ونهر السيكيانج كما توجد أيضاً فى سهول نهر السند فى الهند وباكستان وأحواض الجانج وبرهماپوترا فى الهند ، وبصفة عامة يسود هذا النوع من الزراعة جنوب شرق آسيا فى أقاليم الأرز وعلى وجه الخصوص فى الصين الهندية والصين ، كما يسود أيضاً فى اليابان وفى وادى النيل الأدنى ودلتاه فى جمهورية مصر العربية.

ويلاحظ على مناطق الزراعة الكثيفة أن الأراضى الزراعية قد استغلت هناك منذ فترة طويلة من الزمن حيث حاولت المجتمعات الزراعية القائمة فى تلك المناطق استغلال كل المساحات الممكنة والصالحة للزراعة وذلك لن الزراعة بالنسبة لهم تعتبر عصب الحياة لقطاع سكان كبير منهم قد يصل إلى 80% من جملة السكان ، وأغلب السكان يستخدمون فى الزراعة آلات بسيطة لا تتعدى المحراث والفأس والنورج والشادوف والطانبور والساقية إلى جانب الحيوانات المستخدمة فى الأعمال الزراعية ويسبب إجهاد الأرض باستنزافها بالزراعة وتجنباً لانخفاض إنتاجية المحاصيل الغذائية التى يعتمدون عليها فى

حياتهم (الأرز والذرة والشعير) لجأ السكان لاستخدام المخصبات بكثرة والاهتمام بتربية الحيوان بجانب الزراعة .

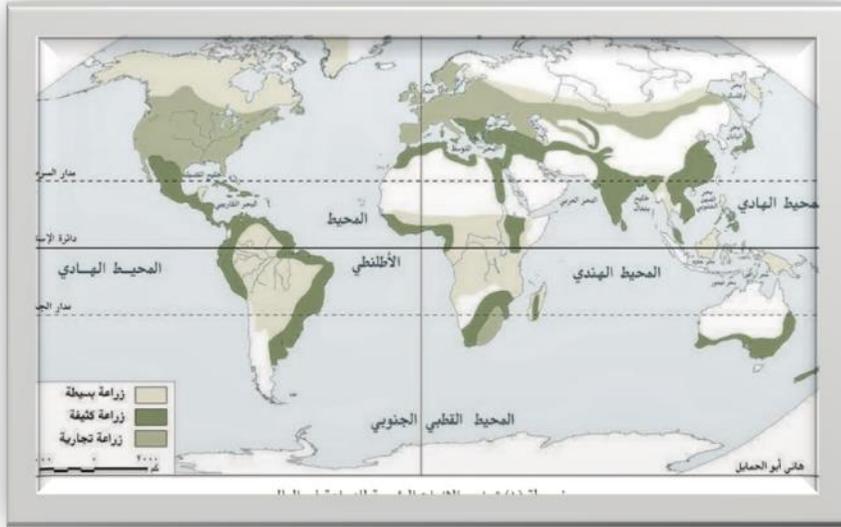
نقطة أخرى وهى أن الزراع هنا يستغلون الأرض على مدار السنة فتنزع الأرض مرتين أو ثلاث مرات ولا يترك جزء منها سنة كاملة بدون زراعة ورغم ذلك تستهلك معظم إنتاجها المحصولى محلياً ولا يجد سكانها متسعاً من الوقت للاشتغال بحرفة أخرى . ويتركز الفلاحون فى محلات عمرانية متقاربة متكدسة وهذا يوضح مدى كثافة هذا النوع من الزراعة الذى يحتاج بدوره إلى أعداد كبيرة من البشر لاستخدامهم فى العمليات الزراعية المختلفة .
ثالثاً : الزراعة الواسعة :

تنقسم الزراعة الواسعة تبعاً لمناطق انتشارها إلى قسمين وهما الزراعة الواسعة البدائية والزراعة الواسعة الحديثة . والنوع الأول من الزراعة الواسعة يمارس بعض الجماعات الرعوية التى تزرع الحبوب فى مساحات واسعة ثم ترحل فى موسم الرعى تاركة الأرض على أن تعود لحصادها عقب انتهاء موسم الارتحال . ومن أمثلة هذه الجماعات أراضي العشائر البدوية فى العراق ورعاة الاستبس وقبائل البقارة بجنوب السودان.

أما الزراعة الواسعة الحديثة فتنتشر فى السهول الوسطى فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، وفى سهول مارى ودارلنج فى جنوبى استراليا وفى الأراضى الزراعية فى شرق البرازيل ومنطقة السهل الخصيب فى الأرجنتين ، وفى أوكرانيا وبلغاريا وألمانيا وبولندا وإقليم بروسيا الشرقية ذلك بالإضافة على إقليم الفلد فى اتحاد جنوب أفريقيا .

وتعتمد الزراعة الواسعة الحديثة على استخدام الميكنة الزراعية وذلك لكبر مساحة الأراضى الزراعية وقلة عدد السكان . وقد ساعد شدة الطلب العالمى على المنتجات الزراعية وتحسن وسائل المواصلات إلى زراعة واستزراع ملايين الأفدنة البكر . ونظراً لعظم المساحة المزروعة وقلة عدد السكان فيها فإن إنتاج الفرد مرتفع بينما غلة الفدان فيها منخفضة وذلك بالمقارنة بالزراعة الكثيفة ، أيضاً مستوى المعيشة مرتفع بسبب وفرة الإنتاج الذى يدخل فى التجارة العالمية على عكس إنتاج الزراعة الكثيفة الذى يستهلك محلياً .

وتعد من أبرز مظاهر استخدام العمليات الحديثة فى الزراعة الواسعة هى استخدام وسائل الرى الصناعى عن طريق الرش إذا ما ساد الجفاف ، ومقاومة الآفات برش المبيدات بواسطة طائرات الهليكوبتر وإمكان زراعة



سفوح الجبال عن طريق عمل المدرجات واستنباط أنواع جديدة من النباتات تتلاءم مع ظروف البيئة بالإضافة إلى استخدام الآلات الزراعية على نطاق واسع فى كل العمليات الزراعية والتوسع فى تشييد شبكة من المواصلات لخدمة المناطق الزراعية ربطها بالعالم الخارجى .

من ناحية ملكية الأرض هناك فرق جوهري بين ملكية الأرض فى الزراعة الواسعة البدائية و ملكية الأرض فى الزراعة الواسعة الحديثة ، ففى الزراعة البدائية ملكية الأرض مشاعة قبلياً بينما فى المزارع الواسعة الحديثة حيث يصل حجم المزرعة فى بعض الأحيان إلى أكثر من ألف فدان نجد أن ملكية الأرض ملكية فردية وليست قبلية ويستثنى من ذلك نظام المزارع الاشتراكية التعاونية سواء كان نظام هذه المزارع جماعياً أو مزارع حكومية وإن لم يعد لها وجود حالياً .

وفى العادة تزرع هذه المزارع بالقمح والشعير والقطن أى أنها مناطق لزراعة غلات تجارية يدخل جزء كبير من إنتاجها فى التجارة الدولية . وتزرع الأرض مرة واحدة فى السنة وقد تترك بعض سنوات لتستريح ويزرع غيرها لاتساع الرقعة الزراعية . وفى ظل نظام الملكية المشاع نجد أن الإنتاج أقل بكثير من إنتاج المزارع الواسعة الحديثة ولا يكون الإنتاج جزءاً رئيساً من دخل الفلاح الذى قد يعتمد فى حياته على حرفة أخرى كالرعى وتربية الحيوان

والمجتمعات الزراعية فى ظل الزراعة الواسعة لا تتكدس جنب إلى جنب فى كفور وقرى وعزب إنما تنتشر محلاتها العمرانية وتتباعد عن بعضها لتوضح لنا نمطاً عمرانياً مختلفاً تمام الاختلاف عن النمط العمرانى الموجود فى مناطق الزراعة الكثيفة وذلك من حيث التركيب الوظيفى والكثافة السكانية رابعاً : الزراعة العلمية التجارية :

تقوم الزراعة العلمية التجارية فى المناطق المدارية المطيرة إذ تمكن الرجل الأبيض من إقامة هذه المزارع فى المناطق التى يستعمرها فى أفريقيا وآسيا وجزر الهند الغربية فأقامها فى حوض الكونغو وشرقى أفريقيا وفى الملايو واندونيسيا والفلبين وسواحل أمريكا الوسطى .

وتتميز المزارع العلمية الحديثة بزراعة غلة نقدية معينة يحتاجها العالم وبخاصة المناطق الصناعية كالمطاط والكاكاو ونخيل جوز الهند وزيت النخيل

والجوت وغيرها من المحاصيل ذات القيمة التجارية المرتفعة في الأسواق العالمية .

ويقوم بالزراعة في المزارع العلمية الحديثة الأيدي العاملة المحلية تحت إشراف الخبراء الذين يطبقون أحدث الوسائل العلمية في الإنتاج الزراعي وتسويقه .

ويتطلب إنشاء مثل هذه المزارع رؤوس أموال ضخمة وطرق نقل جيدة بالإضافة إلى مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية التي حصلت عليها الشركات المالكة لهذه المزارع بطرق متعددة تداخل فيها عامل السياسة والاقتصاد ولعل من أهم العوامل التي شجعت على انتشار المزارع العلمية الحديثة في المناطق المدارية المطيرة ملائمة الظروف الطبيعية والجغرافية لنمو المحاصيل المدارية التي يمكن تسويقها في الأسواق العالمية كقصب السكر والشاي والموز والأناناس ذلك إلى جانب توفر الأيدي العاملة الرخيصة في هذه الأقاليم خاصة بعد تعليم الأهالي أساليب الزراعة الحديثة ، أضف إلى ذلك رخص أثمان الأرض الذي أدى إلى تهافت الشركات الاستعمارية على استغلالها .

خامسا : الزراعة المختلطة :

تقوم الزراعة المختلطة أساسا على الجمع بين تربية الحيوان والزراعة وذلك بقصد المساهمة بإنتاج هذا الجمع في التجارة الدولية بعد الإيفاء بالحاجة الوطنية أو المحلية . وينتشر هذا النوع من الزراعة في شرقي الولايات المتحدة وفي غربى أوروبا ووسطها حيث يتبع المزارعون هناك دورة زراعية ثابتة تجمع بين أعلاف الماشية والحبوب والمحاصيل الجذرية والخضر . ففي الولايات المتحدة يعتبر الذرة أساس الزراعة المختلطة إذ تعتمد الحيوانات على هذا المحصول فى غذائها كما أن زراعة الذرة أصبحت من مستلزمات صناعة تعليب اللحوم هناك ذلك بالإضافة إلى أن الرعاة قد تعرفوا قبل ذبح ماشيتهم أن

يرسلوها إلى مزارع الذرة لتزداد سمنة . أما فى شمال غرب أوروبا فنجد أن الزراعة المختلطة لا تدخل الذرة كأساس لدورتها الزراعية إنما تعتمد أساسا الزراعة فى تلك الأقاليم على الحبوب والمحاصيل الجذرية وتربية الحيوانات من أجل لحومها وأصوافها وجلودها .

نقطة أخرى جديرة بالتسجيل وهى أن معظم أقطار الشرق الأوسط تعتمد هى الأخرى فى حياتها الزراعية على تربية الماشية إلى جانب الزراعة ولذلك لابد من تهيئة الوسائل لتغذية الماشية التى تربىها القرية ، أما الماعز والغنم فيمكن أن ترعى خارج الأرض الزراعية ، لأنها تستطيع أن ترعى بعد ذلك ما يتخلف فى الحقول بعد الحصاد ، وفى الشتاء تحتاج للدريس ، بينما تحتاج الحمير لعلف مكون من الحبوب والدريس . وأكثر الحيوانات نفقة فى تربيتها هى الأبقار والثيران وهى تمد الفلاح باللبن ومستخرجاته وتساعده فى أعمال الحقل .

الفصل الثامن

مجتمعات العالم العربي

يشغل الوطن العربي مساحةً كبيرةً من قارتي أفريقيا وآسيا إذ يمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ومن مرتفعات طوروس شمالاً إلى العروض المدارية جنوباً في مساحة تقرب من 12 مليون كم.2. هذا الامتداد الكبير ساعد على وجود مجتمعات متباينة داخل إطار الوطن العربي الكبير الذي يتسم مناخه بصفة عامة بالجفاف إذ تشغل الصحراء جزءاً كبيراً منه ومن ثم فمجتمعات العالم العربي قامت أساساً حيث توجد موارد المياه الدائمة حول مجارى الأنهار الكبرى كنهري النيل ونهري دجلة والفرات أو حول العيون والآبار كما هو الحال في الواحات أو على الشواطئ الساحلية المطلة على لبحار والمحيطات والتي تستقبل قدرأ من الأمطار يُمكن أهلها من إقامة حياة زراعية



مستقرة .

ومجتمعات العالم العربي تركز أساساً على نمطين من أنماط التجمع السكنى أولهما مجتمع القرية وثانيهما مجتمع البدو والرعى . حقيقةً قد لعبت الصناعة والتعدين دوراً فعالاً في تغيير النظام الاجتماعي الموجود في البلاد العربية غير أن هذا التغيير لم ينجح في أن يذيب أو يحو القاعدة الأساسية التي قامت عليها مجتمعات العالم العربي .

وبعبارة أخرى فقد نجحت الصناعة التي تطورت بخطى سريعة في بعض البلدان كمصر مثلاً في أن تخلق مجتمعات صناعية محلية كمجتمع الصناعة في مدينة المحلة الكبرى والمجتمعات الصناعية في مدينة كفر الدوار وحلوان وغيرها من المجتمعات الصناعية التي لا تختلف في أسلوب عملها ونظامها عن المجتمعات الصناعية في دول غرب أوروبا إلا أنها لم ينجح في أن تحول المجتمع المصري ككل إلى مجتمع صناعي إذ أن ما يزيد على 55% من مجموع سكان مصر ما زالوا يعيشون في قرى ومرتبطين بالأرض وبالزراعة .

ونفس الشيء يمكن أن يطلق على المجتمعات التعدينية في الوطن العربي وهي تلك المجتمعات التي يساهم فيها البترول ينصيب كبير في الدخل القومي كالمملكة العربية السعودية والكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية . فلا نستطيع أن نعتبر المجتمع السعودي مجتمعاً تعدينياً إذ أنه من المعروف أن أغلبية سكان المملكة العربية السعودية الذين يقدر عددهم بين 32 مليون نسمة رعاة بدو يتنقلون في حركات فصلية بي أجزاء شبه الجزيرة العربية وأن الجماعات المستقرة تشكل نسبة محدودة تنحصر في سكان الحضر وفي المناطق التي ظهر بها البترول أو الذهب الأسود .

هنا كان تأثير التعدين محدوداً على قطاع خاص من المجتمع وليس المجتمع كله ومن ثم نشأت مجتمعات تعدينية صغيرة داخل الإطار الرعوى الكبير للمجتمع .

وهكذا نجد أنواعاً متعددة من المجتمعات في الوطن العربي وكلها مجتمعات تتصل بالحضارة والبدواة فهناك مجتمع الزراعة المستقرة ، ومجتمع البدو العريق في البدواة ، وهناك مجتمع الفلاحين المعتمدين على الرى من العيون والآبار والفلاحين المعتمدين على الرى من مياه الأنهار الكبرى ، هناك مجتمع رعاة الإبل ومجتمع رعاة البقر ، هناك مجتمع البدو ومجتمع أنصاف

البدو ، هناك مجتمع الصناعة التعدين ، وهناك مجتمع المدينة ومجتمع القرية ، وهناك مجتمع القرى المكدسة ومجتمع القرى المتناثرة ، هناك مجتمع التجارة بل هناك أيضا مجتمع السياحة ، وكل هذه المجتمعات تعيش فى الوطن العربى الكبير جنباً إلى جنب فى مجتمعات متعاونة مع بعضها اقتصادياً ومقاربة فيما بينها ثقافياً وحضارياً.

المجتمعات الرعوية :

المجتمعات الرعوية من أكثر المجتمعات انتشاراً فى الوطن العربى فتوجد فى شبه الجزيرة العربية وفى الصحراء الكبرى وتشغل الأراضى الصالحة للمراعى ما يقرب من 40% من مساحة المملكة العربية السعودية أو ما يعادل 927 ألف كم². غير أنه بسبب قلة سقوط الأمطار بل ندرتها وعدم انتظامها أدى إلى ندرة هذه الأراضى للغطاء النباتى وساعد على ذلك أيضا استغلال الإنسان للأعشاب الصحراوية كوقود وعدم صيانة المراعى بترك الحيوانات ترعى

بدون رابط أو حساب

وتنتشر

مناطق الرعى فى

شبه الجزيرة

العربية فى إقليم

العسير الذى يحتل



المركز الأول بين مناطق الرعى فى المملكة ذلك إلى جانب الإقليم الشمالى وإقليمى نجد و الحجاز وإقليم ساحل الخليج العربى. وفى كل هذه المناطق تتركز الحياة الرعوية أساسا فى مناطق الوديان حيث تنمو الأنواع المختلفة من الحشائش والشجيرات .

ويعيش فى هذه المناطق الرعوية بعض القبائل العربية من البدو الرحل الذين يحترفون رعى الإبل والأغنام والماعز ، وهؤلاء لا ينفردون بتربية كل أنواع الحيوانات التى تكون الثروة الحيوانية بالمملكة العربية السعودية إذ أن سكان الواحات المستقرون يشاركون الرعاة أيضاً فى تربية الماعز والأغنام إلى جانب الأبقار والحمير .

وتعتبر الجمال أهم الحيوانات فى شبه الجزيرة العربية إذ أنه وسيلة للانتقال عبر الصحراء ويقدر عدد الإبل فى السعودية بما يقرب من 600 ألف رأس بينما تقدر عدد الأغنام والماعز بحوالى 4ر5 مليون رأس . وترجع أهمية الأغنام فى اعتماد جماعات البدو ألبانها وأصوافها فى سد معظم احتياجاتهم من الطعام والملبس ، أما الماعز فتستفيد القبائل من ألبانها ولحومها بالإضافة إلى شعرها الذى يستخدم فى صناعة الخيام التى تمثل مساكن القبائل المتحركة .

أما الأبقار فتمتلك القبائل الرعوية فى إقليم العسير ما يقرب من 47% من جملة الرؤوس الموجودة فى المملكة والبالغة حسب تقدير منظمة الزراعة والأغذية الدولية حوالى 270ر00 رأس والسبب فى ذلك هو كثافة الغطاء النباتى فى هذا الإقليم بالمقارنة بالأقاليم الرعوية الأخرى فى شبه الجزيرة العربية وبسبب قلة الأمطار تتبع القبائل الرعوية نظام خاص فى هجرتهم بحيواناتهم فى مواسم خاصة من كل عام وذلك على أساس وفرة الماء والكلاء وهذه الهجرات أو الحركات الفصلية Trans Humanc تشكل الحياة الرعوية القبائل. فمنذ بداية فصل الشتاء فى أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر تبدأ القبائل فى الرحيل من مقرهم الصيفى حيث يتجهون إلى مناطق سكنى القبيلة فيقيمون بها حتى أوائل شهر مايو وبعدها يبدأون من جديد رحلتهم إلى القرى والواحات القريبة منهم. وفى بدء فصل الصيف الحار عندما تتعذر الحياة يموت العشب وتتضب المياه وذلك فى المنطقة الخاصة بكل قبيلة تنتقل القبائل إلى الواحات

والقرى القريبة منها حيث توجد فى الآبار والعيون بصفة مستمرة فيقيمون خيامهم قريبا منها .

وفى فصل الصيف نتجه القبائل الرعوية التى تسكن فى المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد اليمن وعمان حيث تنمو الأعشاب فى تلك الجهات بسبب سقوط الأمطار الناتجة عن هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية بينما تتجه القبائل التى تسكن فى المناطق القريبة من الحدود العراقية إلى العراق والتى تسكن قريبا من الأردن إلى الأردن وسوريا .

وبصفة عامة أى ذبذبة فى كمية الأمطار الساقطة على تخوم الصحراء كافية لأن تحدث اضطرابات كبيرة بين قبائل البدو ولاسيما إذا تعاقب عدة سنوات من المطر النزر دون المتوسط الأمر الذى يدفع البدو إلى التسلل إلى أطراف البلاد الزراعية المستقرة .

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل الرعوية فى شبه الجزيرة العربية لها شهرة كبيرة منذ القدم فى الاشتغال بالتجارة بين الإقليم الموسمى وإقليم البحر المتوسط . تلك الشهرة التى ارتبطت برحلة الشتاء والصيف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وقد ساعدتهم على ذلك درايتهم الواسعة بمسالك الصحراء ودروبها ومواطن المياه الجوفية بها .

أما بالنسبة للمجتمعات الرعوية فى الصحراء الكبرى فتننتشر هذه المجتمعات فى الأجزاء الجنوبية من بلاد المغرب العربى ، وترعى الجماعات الرعوية هنا الإبل والغنام والماعز بينما تربي الخيول والحمير فى مناطق الواحات . والمراعى هنا فقيرة مما زاد من شظف حياة البداوة ودفع الحكومات العربية إلى العمل على تحسين المراعى بزراعة بعض الحشائش التى تتلاءم وظروف البيئة الطبيعية القاسية .

ومن أهم الجماعات الرعوية فى الصحراء الكبرى قبائل الطوارق أو المثلثون الذين يتجولون فى مساحات كبيرة من الصحراء ويمكن أن تعتبرهم

بربر .وقد استطاعت الطبقة الارستقراطية بينهم أن تحتفظ بشخصيتها ونقائها
الجنسى رغم مجاورتها للمجموعات الزنجية فى الجنوب .

ويمتاز الطوارق بالقامة الطويلة حوالى 174سم والرأس الطويل الكبير
والأنف الضيق ذو القنطرة العالية. أما لون البشرة فيسود اللون الأبيض المائل
للسمرة بين الطبقة الارستقراطية أما أولئك الذين اختلطوا بدرجات متفاوتة
بالزنج فلون بشرتهم بنى فاتح .

وقد اعتنق الطوارق الذين الإسلامى فى القرن السابع الميلادى وهم
يتحدثون لغة خاصة بهم تسمى (لغة التماشك) وهى لهجة بربرية .ويعيش
الطوارق فى قبائل لكل منها شيخ يدعى (أمرار) وهى تقابل
كلمة شيخ عند العرب والشيخ هنا يبسط سلطانه ونفوذه على كل العشائر التابعة



للقبيلة .

وقد نشأ مجتمع خاص لجماعات الطوارق التى تعيش فى واحات
الصحراء الكبرى ، وهذا المجتمع يسوده النظام الأموى حيث تتمتع فيه المرأة
بمركز ممتاز وربما كان سبب ذلك هو قضاء الرجال لمعظم أوقاتهم خارج

الواحة يشتغلون بنقل تجارة القوافل ويتركون أمور الواحة بين أيدي النساء تدرنها فهن اللاتي يشتغلن بالزراعة ويدرن شؤون الواحة ومن ثم كان مركزهم الاجتماعى الكبير فالرجل يرثه ابن أخته الكبرى ، والرجل عندما يتزوج ينتقل إلى بيت الزوجة ويعيش مع أهلها .

ومن الجماعات الرعوية التى تعيش فى الصحراء الكبرى جماعات التيبو التى اشتق اسمها من كلمتى تى – بو ومعانها شعب الصخر لأنهم يسكنون هضبة تيبستى . وجماعات التبو اختلطوا بالعناصر الزنجية فى السودان الأوسط بينما الشماليون منهم يشبهون البربر إلى حد كبير رغم أن قوامهم أغلظ ويوصف قوام نسائهم بأنه أدق قوام فى أفريقيا

وترعى هذه القبائل الإبل والماعز وقد اشترك بعضهم مع بعض قبائل الصحراء الكبرى الأخرى بالتجارة ، فكانت القوافل تحمل البلح والشعير والصوف من الشمال إلى المناطق الجنوبية وتأخذ العاج والدقيق وريش النعام من الجنوب إلى أهل الشمال ، ولقد قلت أهمية هذه القوافل بسبب إلغاء تجارة الدقيق وانتشار طرق السيارات الحديثة التى تخترق الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب .

أما عن المجتمعات الرعوية فى السودان فيمكن أن تقسم إلى قسمين رئيسيين تبعاً للحيوان الذى ترعاه القبائل . القسم الأول ويشمل المجتمعات الرعوية التى ترعى الأبقار ومن أشهرها قبائل البقارة التى تنتشر فى كردفان ودارفور . وهذه القبائل ترعى الماشية أساساً بجانب بعض الزراعة . ومصطلح البقارة لا يُطلق على عامة العرب الذين يرعون البقر على نهر النيل أو شرق النيل الأبيض والأزرق بل هو مقصور على العرب فى غربى النيل الأبيض فى كردفان ودارفور وعلى القبائل الجبهينية بوجه خاص .

وبعد البقارة من أبرز قبائل السودان فى الصفات الحربية ويمتد أقلهم من ناحية الغرب إلى جوار بحيرة تشاد ، كما أن نزعتهم الحربية جعلتهم قادرين

على نشر التأثير العربى إلى حوض بحر الغزال إلى الحدود التى تعيش فيها قبائل الدنكا ، وبعبارة أخرى دفعت قبائل البقارة التى تضم التعايشة والرزيقات الجماعات النيلية المترنجة إلى الجنوب حتى خط عرض 12 ش إلى بحر الغزال وبحر العرب. ويبدو أثر ذلك الاختلاف فى تقاطيع وجوههم ولاسيما فى الشفاه الغليظة والشعر المفلفل أما من جهة الشمال فقد اتصلت البقارة بالفور والجماعات المتصلة بهم.

وجماعات البقارة

تنتقل مع قطعانها بين الشمال والجنوب وراء الكلاء فخلال أشهر الشتاء تنتقل القبائل جنوباً ومع بداية سقوط الأمطار يتجهون ناحية الشمال حيث تغرق الأمطار الجزيرة معظم الأجزاء



الجنوبية التى تغرقها الفيضانات .

أما المجموعة الثانية من رعاة السودان فهى الجماعات التى ترعى الإبل ومن أشهرها قبائل الكبابيش التى تتركز أساساً فى وادى الملك وأن كانت مناطق تجوالهم إلى حدود دارفور غرباً. أما فى فصل الجفاف فقد يسقون أبلهم من وادى المقدم فى الشرق ويتمكن بعضهم من الوصول إلى النيل فى إقليم دنقلة وينتشر الكبابيش شمالاً إلى حدود مصر وبلادهم ملائمة كل الملائمة لرعى الإبل والضأن ومن ثم فإن ثروتهم لا تقتصر على الإبل بل يملكون من الضأن أعداداً كبيرة تباع أضعاف أعداد الإبل ، كما أن تحولهم جنوباً إلى تخوم البقارة جعل بعض عشائرتهم الجنوبية تربي الأبقار.

ومن القبائل التي ترعى الإبل أيضا البجا وينتشرون في شرقي السودان في المنطقة الممتدة ما بين ساحل البحر الأحمر ونهر النيل وهم ينقسمون إلى عدة أقسام منها قبائل البشارين في الشمال وقبائل الأمرار إلى الجنوب منهم ، وقبائل الهدندوة وبنى عامرة ويقدر عدد الإبل في السودان بأكثر من 2مليون رأس .

المجتمعات الزراعية :

يرتبط إقليم الشرق الأوسط بقيام الثورة الإنتاجية الأولى في تاريخ البشرية ومن ثم بأقدم المجتمعات الزراعية الموجودة في العالم قامت في تلك المنطقة حيث توجد مناطق سهلية حبتها الطبيعة بأنها دائمة الجريان وفيرة الطمي كوادى النيل وسهول العراق .

فقد عرف المجتمع المصرى الزراعة منذ الألف الخامسة ق.م.حيث قامت على ضفاف النهر حضارة من أرقى الحضارات الإنسانية القديمة وأكثرها تأثيرا على الحضارات المجاورة .

وقد توافر في المجتمع المصرى عوامل متعددة ، بشرية وطبيعية، ساعدت على قيام الزراعة وتطورها وتقدمها فمياه نهر النيل اللازمة لرى المحاصيل المختلفة متوفرة ، والمناخ جيد ملائم للزراعة ، كما أن فصل النمو يعتمد طول العام مما أعطى الفرصة لزراعة أكثر من محصول في الأرض خلال العام الواحد. أضف إلى ذلك خصوبة الأرض وثرائها بالمواد العضوية المتنوعة إلى جانب تركيز السكان في الوادى وتعاونهم في الأعمال الزراعية.

ونظرا لاعتماد الزراعة المصرية على مياه النهر فقد استلزم ذلك تهذيب مجراه وإنشاء الجسور وتقويتها حتى تصد غائلة الفيضان وكان لابد من تقسيم الأرض إلى حياض ولابد من شق الترع والقنوات فالزراعة في مصر تستلزم وحدة الجهود من أجل استمرار الفائدة المشتركة ، كما أن ظروف البيئة لاتسمح للفلاح المصرى بالاستقلال عن غيره والعيش في حياة مستقرة مثل الفلاح

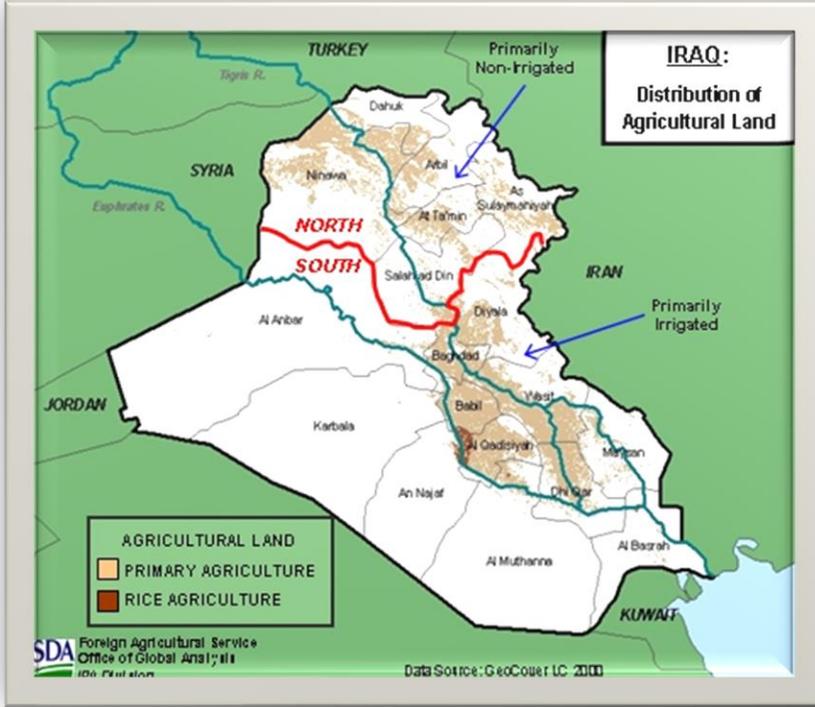
السورى أو اللبناى أو مثل الفلاح فى غربى أوروبا حيث يعتمد على الأمطار فى الزراعة. فى مصر طالما يعتمد الفلاح على الرى فهو فى حاجة إلى التعاون والتنظيم الاجتماعى .

والملكية الزراعية فى المجتمع المصرى مفتتة تفتيتاً شديداً وذلك لصغر المساحة الزراعية بالنسبة لعدد الفلاحين ، كما أن مراكز التجمع الريفى تتقارب المسافات فيما بينها وهذه صفة مرتبطة بالزراعة الكثيفة ومؤشر إلى ضغط السكان على موارد الأرض الزراعية حيث يبلغ مساحة الأراضى الزراعية وذلك بعد الاستفادة الكاملة من مياه السد العالى 8 مليون فدان فى نفس الوقت يصل عدد السكان إلى ما يقرب من 85 مليون نسمة .

وإذا كان الفلاح دعامة المجتمع المصرى فإن القطن هو أهم المحاصيل الزراعية ويقدر متوسط إنتاجه السنوى بأكثر من 8 مليون قنطار معظمها من الأقطان الطويلة التيلة التى تجد لها سوقاً رائجة فى العالم الخارجى، وإن تدهورت هذه الأرقام وتراجع نصيب مصر كثيراً فى زراعة وتجارة القطن فى نهاية القرن العشرين ، وإلى جانب القطن يزرع الأرز فى مساحات واسعة من الأرض بحيث تنتج البلاد ما يزيد على 2 مليون طن مترى من أرز ويصدر جزءاً كبيراً منه إلى الأسواق الخارجية علاوة على الذرة والقمح والبصل والبرسيم والبقول والعدس والخضروات والفاكهة.

ويختلف المجتمع الزراعى فى مصر عن المجتمع الزراعى السودانى إذ يعتمد المجتمع الأخير فى الزراعة على مياه النيل ومياه الأمطار كما أنه على النقيض من المجتمع المصرى لا يعانى ضخامة فى عدد السكان وقلة الأراضى الزراعية فتبلغ مساحة الأراضى الزراعية فى السودان حوالى 8 مليون فدان بينما يبلغ عدد السكان حوالى 40 مليون نسمة أضف إلى ذلك الإمكانيات الكبيرة للتوسع الزراعى ومعنى ذلك مشكلة عدم التناسب من المساحة الزراعية والسكان

موجودة في السودان بصورة مختلفة عن الصورة التي عليها المجتمع المصري



ويلاحظ أن المجتمعين المصري والسوداني كانا يحتكرا إنتاج الأقطان الطويلة حيث كانا ينتجان أكثر من 85% من الإنتاج العالمي للاقطان طويلة التيلة ولكن تراجع هذه النسبة كثيراً في نهاية القرن الماضي، كما تعتبر الذرة الرفيعة من أهم الغلات التي تزرع في السودان حيث تبلغ مساحته أكثر من مليون فدان كل عام. ويلى الذرة في الأهمية الدخن كما يزرع السمسم والفول السوداني والبطاطا والكسافا

ويبدو أن المسرح الجغرافي الذي وجده الإنسان في العراق ومصر كان متشابهاً ففي كل من المنطقتين يوجد وادى طويل خصب غنى بالتربة الزراعية المتجددة وبالمياه الجارية التي تجرى طول العام في قنوات وشرابيين

مائية تمد التربة الزراعية بأكاسيد حياة نباتاتها. غير أن هناك اختلافاً رئيساً بين الفرات والنيل ، هذا الاختلاف هو فى وقت حدوث الفيضان السنوي ، ففى العراق لا يستطيع أحد أن يتنبأ بميعاد فيضان نهر الفرات لأنه يتوقف على الأحوال الجوية فى مرتفعات الأناضول ويتوقف على ذوبان الثلوج فوق هذه المرتفعات. فهو يأتى فى أواخر الربيع فى الوقت ما بين أوائل أبريل وبداية يوليو ويكون ارتفاع الماء فجائياً .

وتبعاً للظروف المناخية السابقة ضرورة بذر المحاصيل السنوية مع شهر أبريل فى نفس الوقت الذى ما تزال فيه المحاصيل الصيفية فى الأرض ، ومعنى ذلك أنه مادهم الفيضان الحقول فى هذه الفترة وأغرق النباتات تحت عمق من المياه يبلغ حوالى ثلاثة أقدام فإن الفلاح يفقد كل أمله فى محصوله الحالى بل أيضاً فى أماكن زراعة محصول جديد ولذا كان على الفلاح العراقى محاربة غائلة الفيضان عن طريق تحويل بعض مياهه فى خزانات أو منخفضات طبيعية تقع على أطراف الصحراء المرتفعة ، هذا مع ملاحظة أن خصوبة العراق تعتمد على التدفق العادى للنهر الذى يمكن التحكم فيه والاستفادة منه عن طريق شبكة من قنوات الري .

وهكذا نشأ فى العراق المجتمع الزراعى كالمجتمع المصرى من حيث قدم استغلال الإنسان للأرض وتعتمد الزراعة فى العراق على الأمطار فى الأجزاء الشمالية من البلاد بينما تعتمد على مياه الري من نهري دجلة والفرات فى الأجزاء الوسطى والجنوبية .

ويبلغ عدد سكان المجتمع العراقى حوالى 36 مليون نسمة ويؤلف السكان الزراعيون منهم نحو ثلثى المجتمع العراقى يعيشون فى قرى لا يزيد عدد سكانها كل منها فى معظم الأحيان عن 2000 نسمة ، وبعض من هؤلاء السكان يوضع فى مرتبة أنصاف المستقرين لأنهم مازالوا يجمعون بين الحياة البدوية القائمة على رعى الماشية والحياة الزراعية المرتبطة بزراعة الأرض

وبعبارة أخرى هؤلاء المزارعون يحتفظون بتقاليدهم وعاداتهم البدوية ويتسم المجتمع الزراعى فى العراق بأن لديه مساحة كبيرة من الأرض قابلة للزراعة تصل فى مجموعها حوالى 27 مليون فدان يستثمر منها حالياً حوالى نصف هذه المساحة. ويعتبر القمح أهم الحبوب الغذائية التى يزرعها الفلاح العراقى إلى جانب الأرز والشعير والقطن والتبغ ، كما يشتهر المجتمع العراقى بإنتاج التمور حيث يقدر عدد أشجار النخيل هناك بأكثر من 32 مليون شجرة يصل إنتاجها السنوى إلى أكثر من 350 ألف طن بحيث يساهم بنسبة 80% من تجارة التمور الدولية وبحوالى 40% من الإنتاج العالمى .

والفلاح فى المجتمع العراقى يقوم بزراعة الأرض بطريقة المشاركة بمعنى أنه يعمل فى أغلب الأحيان نظير أجر عيني لا يزيد قيمته على نصف قيمة المحصول رغم أن الحكومة تتحمل نفقات أعمال الرى ، أما إذا تحمل المالك نفقات الزراعة فتصل حصة المزارع إلى حوالى ثلث قيمة المحصول ومن ثم أصدرت الحكومة قانوناً يحدد الحد الأدنى لأجر المزارع بنصف قيمة المحصول .

وبالإضافة إلى المجتمعات الزراعية الرئيسية السابقة الذكر تنتشر حرفة الزراعة والقرى الزراعية فى مساحات أخرى واسعة فى العالم العربى فى ليبيا وتونس والجزائر وسوريا ولبنان وغيرهم من دول الشرق الأوسط .

فالقرية العربية مجتمع قديم عريق، يتبع أساليب قديمة فى الإنتاج ولازال متمسكا بأسس اجتماعية تقليدية فالأدوات الزراعية المستخدمة فى الوقت الحاضر هى نفس الأدوات الزراعية التى كان يستخدمها من عشرة قرون مضت بالمحراث والشادوف والمنجل والفأس وأساليب الرى البدائية القديمة ما زالت هى محور الزراعة العربية رغم أن الملكية الزراعية قد عرفت طريقها فى بعض المجتمعات العربية إلا أن الطريق مازال أمامها طويلاً قبل أن استخدم

على نطاق واسع أو تصل إلى الأقاليم الزراعية التي مازال فيها زمام الأرض الزراعية صغيراً بسبب تفتت الملكية أو أنواع الزراعة القائمة .
المجتمعات الصناعية :

يبدو ممماً سبق إنتماء مجتمعات العالم العربى أساساً إلى مجتمع القرية أو مجتمع البادية وأن الصناعة أو التعدين قد نجحت فى أن تخلق داخل هذه المجتمعات الكبرى مجتمعات أصغر ومن ثم يوصف المجتمع بأنه مجتمع صناعى إذا كانت حرفة الصناعة هى السائدة وكانت الأيدى العاملة بها تمثل أعلى نسبة بين العاملين فى المجتمع .وعند تطبيق ذلك على مجتمعات العالم العربى نلاحظ أنه لا توجد مجتمعات صغرى داخل هذه المجتمعات الكبرى يمكن أن توصف بأنها مجتمعات صناعية اللهم داخل إطار المجتمع المصرى . وفى هذه المجتمعات الصناعية استطاعت الصناعة أن تترك بصمتها بقوة على مورفولوجية المنطقة الموجودة بها، يعنى أن المصانع أصبحت تمثل فى هذه المناطق العالم الرئيسية كما أن كل شئ فى المنطقة أحد ينمو ويتطور بمقدار اتصاله بالصناعة وارتباطه بالعامل الذى يدير آلة المصنع ومن أمثلة المجتمعات التى توجد فى مصر مجتمع الصناعة فى مدينة المحلة الكبرى ، وهنا يوجد أكبر منطقة صناعية فى مصر وأقدمها عهداً بالصناعة إذ أن صناعة الغزل والنسيج قامت هناك بالذات لتوافر عامل السبق الجغرافى والخبرة لدى السكان ذلك إلى جانب عوامل أخرى تتصل بالتوسط الجغرافى والقرب من إعادة الخام وغير ذلك من العوامل التى تساعد على قيام وتوطن الصناعة فى مكانها .كذلك هناك مجتمع صناعى فى حلوان وآخر فى منطقة شبرا الخيمة الصناعية وثالث فى منطقة كفر الدوار وفى جميع هذه المناطق قامت مدن صناعية تضم المصانع والعمال والمرافق الأزمة لقيام الصناعة .

المجتمعات التعدينية :

كان من نتيجة استغلال الثروة المعدنية والبتترول فى العالم العربى أن ظهرت مجتمعات تعدينية فى أماكن استغلال هذه الثروات بحيث ارتبط نظام حياتها وتشكل باستغلال هذه الموارد الطبيعية وأصبح وجود هذه المجتمعات مرتبطاً باستمرار استثمار واستخراج الثروات الموجودة فى المنطقة .

ويعتبر البترول أهم الثروات الطبيعية المستغلة فى الوطن العربى بل أكثر الثروات تأثيراً على اقتصاديات البلاد العربية وأبلغها أثراً فى التطور الاجتماعى للشعوب العربية . ويوجد البترول فى المملكة العربية السعودية والبحرين وقطر والأمارات العربية والكويت والعراق كما يوجد أيضاً فى مصر وليبيا .

وقد كانت العراق أول الأقطار التى اكتشفت بها البترول فى المشرق العربى حيث بدأت شركة بترول العراق منذ عام 1927 إنتاج البترول حتى وصل إلى مليون طن عام 1936 ثم إلى ما يزيد على 500 مليون طن حالياً . وقد تبعت المملكة العربية السعودية العراق من حيث أسبقية الاكتشافات البترولية فعثر على البترول لأول مرة فى حقول الدمام فى عام 1935م ثم توالى الاكتشافات البترولية بعد ذلك إلى أكثر من 550 مليون برميل سنويا . وكانت قطر ثالث الأقطار العربية فى المشرق العربى التى عُثر بها على ثروة بترولية فى منطقة جبل الدخان فى عام 1939 ولقد أخذ إنتاج قطر يزداد حتى تعدى 6مليون برميل سنويا . ثم بعد ذلك اكتشف البترول فى البحرين فى عام 1940 وفى الكويت فى عام 1936 . وقد ثبت احتواء الكويت على كميات هائلة من البترول حتى أن الاحتياطى بها يقدر بحوالى ربع الاحتياطى العالمى وتنتج الكويت كمية سنوية تزيد على 660 مليون برميل .

وفى عام 1949م اكتشف البترول فى المنطقة المحايدة الواقعة بين الكويت والسعودية ويقوم بالتنقيب عن البترول هناك بعض الشركات الأمريكية والايطالية واليابانية . ولقد اكتشفت الشركات اليابانية أيضاً البترول فى المنطقة

البحرية المقابلة لسواحل المنطقة المحايدة ، وفي عام 1960 اكتشف البترول في أقصى شمال شرق سوريا في حقول السويداء.

ولقد ساهمت اقتصاديات البترول في زيادة الدخل القومي لدول المشرق العربي مما ساعد الحكومات على إنشاء المدن في الصحراء حيث مناطق البترول وتزويدها بالمرافق العامة وساعدت أيضا على تنفيذ المشاريع التي تهدف إلى زيادة الثروة الاقتصادية للبلاد وكذلك الخدمات الاجتماعية والثقافة لشعوب هذه المنطقة .

أما بالنسبة لمصر ودول المغرب العربي فنجد أن اكتشاف البترول والحديد والفوسفات والمنجنيز في الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وشبه جزيرة سيناء قد غير كثيراً من معالم المناطق التي اكتشفت فيها هذه المعادن ويزيد إنتاج حالياً من البترول عن 9مليون طن ومن المتوقع زيادة الإنتاج نتيجة للاكتشافات الحديثة في الصحراء الغربية .ومما هو جدير بالذكر أن الشركات المختلفة التي تباشر عمليات التعدين قد أقامت المستعمرات السكنية للعمال والمهندسين القائمين بعمليات التعدين في قلب الصحراء وزودت هذه المحلات العمرانية الحديثة بالخدمات الاجتماعية والثقافية .وقد اكتشف البترول في ليبيا منذ عام 1955 وقد بلغ إنتاج ليبيا من البترول أكثر من 70 مليون طن سنويا ، كما بدأ إنتاج البترول في الجزائر منذ عام 1957 ويزيد إنتاجها في الوقت الحاضر عن 100مليون طن .

وفي المغرب يعتبر الفوسفات أهم عناصر الثروة المعدنية فتحتل المغرب المرتبة الثانية بين دول العالم المنتجة للفوسفات وأول الدول المصدرة له فيزيد إنتاجها السنوية عن 9مليون طن

الخلاصة أن البترول وغيره من الثروات الطبيعية فى العالم العربى قد أحدث تغيرات اجتماعية هامة إذ أن شركات استغلال البترول تحتاج إلى عمالة محلية ومن ثم استطاعت هذه الشركات أن تجتذب البدو إلى حياة حضرية واجتماعية جديد لم يعرفوها من قبل (فأصبح لأول مرة فى تاريخ البداوة أمام الآلة الغربية الجبارة وجها لوجه ، وقد استطاع أن يتعلم أسرار هذه الآلة وسيطر عليها ، واستطاع أن يتغلب على شعور المهانة التى يشعر بها البدو نحو المهن اليدوية ، كما أنه بدأ يخرج من النظام القبلى الذى كان يعيش فيه وخف شعوره بالولاء إزاء شيخ القبيلة واتجه ولاؤه نحو الشركة ونحو العمل الجديد وأصبح فرداً مدنيا بعد أن كان راعيا بدويا ، وهذه العملية انتهت أو هى فى سبيل الانتهاء



إلى حالة تفكك تصيب القبائل البدوية)،ولكن بفصل شعور العرب وسيادتهم لأوطانهم لم يتحولوا بعد تفكك القبائل إلى مجرد وهماً فى مدن البترول الجديدة

على الخليج العربي بل على النقيض من ذلك حاولوا أن يطوروا حياتهم ويمسكوا
بزمam الأمور فى بلادهم.

- المراجع

1. جمال حمدان، بترول العرب، القاهرة 1964.
2. محمد فاتح عقيل وفؤاد الصفار، جغرافية الموارد والإنتاج،
الإسكندرية، 1964.
3. محمد السيد غلاب، البيئة والمجتمع، القاهرة، 1969.
4. محمد السيد غلاب، تطور الجنس البشري، القاهرة، 1969.
5. محمد السيد غلاب وصبحي عبد الحكيم، السكان ديموغرافيا وجغرافيا،
القاهرة 1969.
6. محمد السيد غلاب ويسري الجوهري، الجغرافيا التاريخية، القاهرة
1969.
7. محمد السيد غلاب ويسري الجوهري، جغرافي الحضرة، الإسكندرية،
1971.
8. يسري الجوهري، شمال أفريقيا دراسة فى الجغرافية التاريخية
والإقليمية، بيروت، 1968.
9. يسري الجوهري، السلالات البشرية، طبعة ثالثة، بيروت، 1969.
10. يسري الجوهري وحافظ مصطفى، جغرافية السكان، الإسكندرية،
1970.

المراجع غير العربية:

1. Aderson, M., Geography of living things, London,
1951.
2. Brown, W.C., & Johnson, P.H. How people live,
London, 1918.

3. Brown, P., Man's adaptoion to Nature, London, 1939.
4. Davis, D.H., The Earth and Man, New-York, 1955.
5. Fisher, W., The Middle East, London, 1945.
6. Fleur, H.J., Human Regions, Sectt Geog, Mag., 1919.
7. Ford, F.D., Haditat, Economy and Society, London, 1947.
8. Hourani, A., Minorities in the Arab Workd, London, 1947.
9. King, H.W., The pattern of human activities, Sydney, 1752.
10. Page, J.W., From Hunter to Husbandman, London, 1935.
11. Sollas, W.J., Ancient hunters, London, 1934.
12. Tothill, J.D., Agriculture in the dudan, London, 1948.
13. Taylor. G., Encironment, Village and City, Ann Geog, 1942, Vol XXXI, pp, 1-47.

الفصل التاسع
الإنسان والدولة
(الجغرافيا السياسية)

المقومات الجغرافية ونشأة الدولة:

لم يعرف الإنسان خلال المراحل الأولى للحضارة البشرية الدولة بمفهومها الحديث ، ذلك المفهوم المرتبط بوجود رقعة محددة من الأرض يقطن داخلها مجموعة سكانية تربطها روابط ثقافية وتاريخية ومعنوية ويحكمها سلطة

تباشر تنظيم الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين أفراد هذه المجموعة السكانية ، كما تتولى أيضاً العلاقات المتنوعة بين العالم الخارجى وهذه الدولة. تطور النظام الاجتماعى عصر المعدن(3000ق.م) للتجمعات السكانية كضرورة لزيادة عدد السكان وتطور النظام الاقتصادى ونشأة المدن التى جمعت حولها مراكز عمرانية أصغر منها حجماً ووظيفةً وتدين لها بالتبعية .وبالتدرج توصل الإنسان بعد ذلك إلى ضرورة تأمين رقعة الأرض التى يستقر بها حيث عمد إلى ترك بعض الأراضى الفضاء الخالية لتحيط بالمدن وذلك لأجل أن يتمكن من الدفاع عن أرضه فى حالات المنازعات التى كانت تنشأ بين الجماعات المستقرة والجماعات الرعوية المتنقلة .

وهكذا ظهرت الحاجة إلى ضرورة تعيين الرقع الأرضية التى تباشر فيها كل جماعة نشاط حياتها منعاً للمنازعات والحروب لذلك بدأت الحاجة إلى تخطيط مناطق الحدود ثم تطور الأمر إلى ظهور الدولة بصورتها الحالية . ولكى تكون هناك دولة لابد من توافر عناصر ثلاث رئيسية تُعرف بالأسس أو المقومات الجغرافية للدولة .ويرى العديد من الباحثين أن أول هذه الأسس وهى الأرض أهم مقوم لنشأة الأرض حيث لا يمكن أن تقوم بدونها وأن كانت الأرض التى تشغلها الدولة قد تختلف من نواحى عديدة .

فبعض الدول تشغل مساحةً كبيرة من الأرض بينما تقوم الأخرى على مساحة صغيرة ، كما أن الموارد الطبيعية للأرض تختلف من مكان لآخر تبعاً لظروف التكوين الجيولوجى للمنطقة ومن ثم فهناك الدول الغنية والدول الفقيرة ، بالإضافة إلى ذلك تختلف أهمية أو قيمة الأرض باختلاف موقعها الجغرافى إذ تتوفر فى مواقع بعض الدول مميزات حُرمت منها مواقع دول أخرى فهناك دول بحرية تمتلك سواحل طويلة وهناك دول أخرى تسعى للحصول على نافذة تطل منها على البحار المفتوحة .

وإذا كانت الأرض هي مسرح الدولة أو أحد وجهى العملة فإن السكان هم الوجه الآخر من العملة بمعنى أن قيام الدولة يرتبط بوجود شعب يقطن الأرض ويعطيها سلطة التعبير عن علاقة هؤلاء السكان بالأرض ولذا تختلف الدول من حيث عدد سكانها فهناك دول كثيفة السكان مثل الصين والهند ودول أخرى قليلة السكان مثل دول الخليج وأستراليا وموريتانيا. أما العنصر الثالث الواجب توفره لقيام الدولة فهو السلطة الحاكمة التى يرمز لها باسم الحكومة ووظيفتها الإشراف على سكان الدولة ورعاية مصالحهم فى الداخل والخارج على السواء ، وعلى ذلك يمكن أن تقسم المقومات الجغرافية للدولة إلى قسمين رئيسيين وهما:

(أولاً) المقومات الطبيعية .

(ثانياً) المقومات البشرية .

أولاً : الأسس أو المقومات الطبيعية

تشمل هذه الأسس الموقع الجغرافى للدولة ومساحتها وشكلها كما تشمل التضاريس والمناخ والنبات الطبيعى الموجود بها . فمن ناحية الموقع الجغرافى نلاحظ أن الأهمية الإستراتيجية للدول مختلفةً وذلك تبعاً لتوسط موقعها أو تطرفه بالنسبة للطرق المواصلات العالمية ومقدرة سيطرتها وتحكمها على هذه الطرق وسهولة استخدامها لها، وذلك بالإضافة إلى علاقة موقع الإقليم بمراكز الثقل الحضارية والسياسية فى العالم ، ومعنى ذلك أن قيمة الموقع الجغرافى قد تتغير تبعاً لتطور العوامل البشرية المصاحبة للتطور السياسى والحضارى فى العالم.

على الرغم أن الموقع الفلكى للدولة قد لا يدخل عليه أى تعديل فى أثناء تذبذب القيمة الجغرافية للموقع . فموقع مصر مثلاً فى الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا بين خطوط عرض وخطوط طول معينة ظل ثابتاً طوال التاريخ غير أن قيمة هذا الموقع تغيرت فى العصور القديمة وحتى العصر الرومانى كانت

مصر ذات موقع جغرافى ممتاز بسبب تحكمها فى التجارة المارة بين الشرق والغرب غير أنه فى الفترة بين القرنين السابع والعاشر الميلادى فقد هذا الموقع الجغرافى قيمة بسبب انقطاع التجارة بين أوروبا المسيحية والعالم الإسلامى ثم عاد وازدهر من جديد حينما استؤنفت التجارة بين الشرق والغرب ولكن بعد أن اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح أضحت أهمية الموقع الجغرافى لمصر ولم يعد إليه أهمية إلا بعد شق قناة السويس التى قدمت طريقاً أقصر من طريق رأس الرجاء الصالح أمام السفن المتجهة من أوروبا إلى آسيا أو بالعكس. ويمكن أيضاً أن نتتبع تذبذب قيمة الموقع الجغرافى لبريطانيا قبل وبعد اكتشاف العالم الجديد وموقع نيوزيلندا البعيد عن طرق المواصلات العالمية وكذلك موقع كل من سوريا وفلسطين .

وقد تحدد قيمة الموقع الجغرافى أيضاً من حيث العلاقة بين اليابس والماء فهناك دول تطل على البحار المفتوحة بسواحل طويلة كالولايات المتحدة الأمريكية على حين أن هناك دولاً أخرى لا تطل على بحار وهى الدول التى يُطلق عليها اسم الدول الداخلية أو الدول (الحبيسة) مثل سويسرا والنمسا ومنغوليا وأفغانستان وبوركينا فاسو وأثيوبيا...، وجدير بالذكر أن الدول البحرية تتمتع بميزة هامة وهى سهولة اتصالها بدول العالم المختلفة عن طريق الملاحة البحرية السهلة الرخيصة بينما تحرم الدول الداخلية من هذه الميزة اللهم عن طريق استخدامها لموانئ الدول البحرية، نقطة أخرى ترتبط بموقع الدولة وهو الدور المهم للموقع فى توجيه سياستها الخارجية فى الاتحاد السوفيتى القديم- مثلاً- دفعته الإستراتيجية العسكرية إلى نقل مراكز الصناعة الثقيلة إلى ما وراء جبال الأورال ، كما أن موقع ألمانيا الداخلى جعلها تحاول قبل الحرب العالمية الأولى أن تنشأ أسطولاً بحرياً بغرض التوسع والحصول على مستعمراتها كذلك اشترك فرنسا وألمانيا فى حدود نهر الراين دفع فرنسا إلى أن تنهج سياسة الأحلاف القصيرة لتطويق ألمانيا .

أما عن مساحة
الدولة فنظراً لتفاوتها
من دولة إلى أخرى
فيمكن تقسيمها لسهولة
الدراسة إلى الأقسام
الآتية .

1- دول عظيمة
المساحة مثل

روسيا(17 مليون
كم²)والولايات المتحدة
الأمريكية(9.3 مليون كم²)
والصين(9.5 مليون كم²)
وكندا(9.9 مليون كم²)
والبرازيل(8.5 مليون كم²)،
وهذه الدول تعدد بها خطوط
الطول ودوائر العرض لذلك
تشتمل عدة أقاليم مناخية ونباتية



وتتنوع بها مصادر الثروة.

2- دول كبيرة المساحة كالهند(3.25 مليون كم²) والسودان(2.5 مليون كم²)
والمملكة العربية السعودية والكنغو اليموقراطية والجزائر وهي
دول أصغر في مساحتها من مجموعة الدول الأولى، إلا أنها تتمتع بمساحات
شاسعة وموارد متنوعة .

3- دول متوسطة المساحة كإيطاليا وأسبانيا والعراق ومصر، مع ملاحظة
أنه ليس هناك مقنن معين لتحديد مجموعة الدول ذات المساحات

المتوسطة إذ أن المعيار هنا تقريبي كما هو الحال بالنسبة لتحديد المجموعات الأخرى .

4- دول صغيرة

المساحة كاليمين
والكويت والأردن
والبحرين وقطر .

5- دول قزمية
المساحة وهي الدول
الصغيرة جدا



كالفاتيكان وأماره موناكو وجمهورية أندورا على الحدود بين أسبانيا وفرنسا .

وكلما كبرت مساحة الدولة تنوعت مواردها الطبيعية وإمكانياتها البشرية وبالتالي ازدادت قوة الدولة حيث أن الاستغلال الاقتصادي السليم لموارد الدولة لا يمنحها قوة داخلية بل يزيد من قوة تأثيرها على المجتمع الدولي ويتضح ذلك بجلاء في وضع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، فكل منهما تشغل رقعة كبيره من الأرض تتعدد فيها الأقاليم المناخية والنباتية كما تحتوى أيضا على ثروات معدنية كبيرة ومصادر متعددة ومتنوعة ذلك بالإضافة إلى أن كلا الدولتين قد قطعنا شوطاً كبيراً في استغلال مواردها استغلالاً منظماً ولديها إمكانيات اقتصادية تكفل الحياة لأعداد أكبر من السكان.

والمساحة في حد ذاتها ليست هي المعيار الوحيد لقوة الدولة أو قدرتها في السياسة العالمية فالهند والبرازيل وكندا أكبر مساحةً من فرنسا وبريطانيا غير أن وضع المجموعة الثانية في ميزان القوى العالمية يجعلها ضمن مجموعة الدول العظمى وذلك على النقيض من الهند أو البرازيل والسبب في ذلك هو أن الهند لم تنجح في استغلال الإمكانيات البيئية المتاحة لها رغم عظم عدد سكانها

وضخامة مساحتها كذلك البرازيل تشبه كندا وأستراليا في أن مساحتها الكبيرة لم تعوضها عن نقص السكان بها وقلة إمكاناتها الاقتصادية .

كذلك لا تأخذ المساحة كدليل على القوة القومية داخل الدولة فالهند مثلاً أكبر أيضاً من حيث المساحة من كل من فرنسا وبريطانيا ولكن رغم ذلك تأتي بريطانيا في المركز الأول من حيث القوة القومية وتساويها في ذلك فرنسا ثم تأتي الهند بعد ذلك نظراً لتعدد اللغات والأديان بها.

وكما تتفاوت دول العالم من حيث المساحة تختلف أيضاً من حيث أشكالها ويلاحظ أن الشكل المثالي للدولة - من الناحية النظرية البحتة- هو الشكل الدائري

المنتظم أو القريب من ذلك ولاسيما إذا كان مركز الحكم أو العاصمة في الوسط والسبب في تفضيل هذا الشكل أيضاً من الناحية النظرية هو أن حدود الدولة في حالة الشكل الدائري



تكون قصيرة بالنسبة لمساحتها الأمر الذي يساعد على سهولة الدفاع عنها.

ومن الناحية التطبيقية نجد أن الشكل المثالي للدولة هو أى شكل تكون فيه أجزاء الدولة متماسكة فعلى سبيل المثال رومانيا وسويسرا والمجر كلها أشكال لدول أقرب إلى المثالية سواء من ناحية الشكل الدائري أو من حيث التماسك.

وعلى العكس من ذلك هناك دول طويلة الشكل مثل شيلي وماليزيا كما أن هناك دولاً تتميز بأن أراضيها غير موحدة وهذه يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأولى دولة عبارة عن مجموعة كبيرة من الجزر المبعثرة كاليابان وإندونيسيا والثانية دولاً أخرى مشطورية إلى قسمين يفصل بينها أراضي تابعة لدول أخرى كما كان الحال بالنسبة لباكستان الغربية وباكستان الشرقية (بنجلاديش) والتي

كان يفصل بينهما أجزاءً من شمال الهند ، كذلك الحال في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية حين كان يشطرها الممر البولندي .

وتزداد قدرة الدولة على حماية أراضيها إذا كانت حدودها تتفق مع المرتفعات كما هو الحال بالنسبة لحدود شيلي الشرقية على حين تضعف المرتفعات من قوة الدولة إذا كانت تخترق أراضيها كما هو الحال بالنسبة لبلغاريا. ويلاحظ أن المرتفعات يمكن أن يكون لها دوراً اقتصادياً هاماً في حياة



الدولة إذا ما احتوت على ثروات معدنية أو إذ ما استخدمت سفوحها كمراعى للأغنام والماعز ، كما أن السهول الخصبة ذات المناخ الملائم يمكن أن يكون لها دوراً فعالاً في تكثيف

السكان وتوفير إمكانيات زراعية للدولة الأمر الذي يساعد على دعم قوتها. وبالمثل لكل مظهر من مظاهر التضاريس الكبرى في الدولة أثر على إستراتيجيتها وقوتها .

أما عن المناخ فهناك العديد من النتائج المرتبطة بتنوعه في مختلف دول العالم حيث تتنوع ثرواتها النباتية والحيوانية على السواء الأمر الذي أثر إلى حد كبير في حياة السكان في كل الدول ويلاحظ بصفة عامة أن المناخ المعتدل المطير ساعد على تنوع المنتجات الزراعية وتركز السكان بأعداد كبيرة كما هو الحال في وسط أوروبا وأمريكا الشمالية بينما لم يزل المناخ الشديد البرودة حائلاً لمزاولة الإنسان لأي نشاط إلا في حالة توفر الثروات المعدنية .

وفى
كثير من دول
العالم استطاع
الإنسان أن يزيل
مساحات كبيرة
من الغابات



ويحولها إلى أراضى زراعية مما ساعد على ازدياد ثروات الدول كما استطاع الإنسان في عدد آخر من الدول التي تنمو بها الحشائش الطبيعية أن يزاول مهنة الداعي بجانب الزراعة. والخالصة أن قوة الدولة الاقتصادية تزداد إذا ماتوفرت بها مساحات تنتوع فيها النباتات الطبيعية وكان سكانها قادرين على استغلال هذه المساحات .

ثانيا : الأسس أو المقومات البشرية

يدخل تحت المقومات البشرية السكان واللغة والدين والموارد الاقتصادية :

وينظر إلى سكان الدولة من زاويتين أولهما من ناحية تكوينهم السلالي أو الجنسى



أى التركيب العرقي
للسكان والثاني من
ناحية الديموغرافية
للسكان التي تعتمد
على تحليل الإحصاءات
السكانية وذلك لمعرفة
تطور

السكان وتركيبهم ونسب فئات السن المختلفة وذلك من أجل تقدير القوة العاملة، ذلك بالإضافة إلى معرفة توزيع السكان داخل الدولة لتحديد مناطق تركيزهم ومناطق انتشارهم وعلاقة ذلك بالحدود .

(الصين والهند عملاقى السكان فى العالم)

وكما تتفاوت دول العالم من حيث المساحة تختلف أيضاً من حيث عدد السكان ، غير أن عدد السكان فى حد ذاته لا يمكن أن يؤخذ كمؤشر أو دليل على قوة الدولة أو ضعفها لأن قوة الدولة تكمن فى العدد (الأنسب للسكان) وهو العدد القادر على استغلال الموارد الطبيعية فى الدولة استغلالاً مثمرأ فإذا زاد عدد السكان عن الحد الأنسب لها أصبح هناك حالة إفراط سكاني وإن قل العدد أيضا أصبح هناك حالة تفريط ،مما يسهم فى إضعاف الدولة .

ومعنى ذلك أن قوة الدولة لا تكمن فى مساحتها فقط بل أيضاً فى عدد سكانها ومقدرتهم على استغلال مواردها فإذا كان عدد السكان يفوق طاقة موارد الدولة انخفض المستوى الاقتصادى لأفراد الشعب أما إذا كان عدد السكان أقل من إمكانية ومقدرة الدولة الاقتصادية أصبح تدنى السكان عائناً دون التقدم الاقتصادى إذ يضطر سكان الدولة إلى أن يتركوا قدراً كبيراً من الإمكانيات الاقتصادية دون استغلال وفى هذه الحالة يصبح الافتقار إلى السكان عائناً دون التقدم الاقتصادى .

وقيمة سكان الدولة لا تكمن فى عدد السكان بقدر ما تكمن فى مقدرتهم الحيوية ، ونسبة القوى المنتجة Productive Group ونسبة القوى المعوضة Pre- Reproductive (وهي نسبة الإناث التي تقل أعمارهن عن 14 سنة إلى جملة عد الإناث فى الدولة) وعدد الإناث والذكور وفئات السن وأمد حياة الأفراد ، ونسبة الوفيات والمواليد وغيرها من العناصر التي تشكل الوضع

السكاني في الدولة . وبصفة عامة نجد أن المستوى الاقتصادي والاجتماعي وتركيب السكان يلعب دوراً هاماً في قوة الدولة فكلما ارتفع مستوى السكان الاجتماعي زادت مقدرتهم الحيوية وكلما استطاعوا استغلال الموارد الطبيعية في الدولة أحسن استغلال زادت بالتالي قوة الدولة .

وتختلف الدول من حيث تجانسها العرقي إذ أنه لا توجد أي دولة تتصف بنقاء شعبها من الناحية السلالية نقاءً تاماً حيث أن تقدم وسائل النقل والمواصلات ساعد على انتشار الإنسان في كل بقعة من بقاع الأرض كما ساعد على اندماج سكان العالم وتزاوجهم مع بعضهم ففي بعض الدول لا يوجد أي تنافر إثني وعرقي بين شعبها الذي يتميز بالتجانس التام رغم تعدد سلالاته ومن أمثلة هذه الدول مصر وفرنسا إذ استطاعت كلا الدولتين أن تستوعبا السلالات التي دخلت إليها وتصبغها بصبغة قومية واحدة – مصرية كانت أو فرنسية .

وعلى النقيض من هذه الدول تلك الدول التي لم تنضج قومياً بعد والتي تتصف بتعدد تركيبها الجنسي إذ أن العناصر المختلفة التي تعيش في الدولة لم تستطيع أن تندمج مع بعضها بسبب احتفاظها بولائها وانتمائها القومية القديمة وعدم إمكانهم الانصهار في بوتقة القومية الجديدة وفي هذه الحالة يكون التكوين المعقد للسكان عاملاً من عوامل ضعف الدولة إذ يخلق لها مشكلة الأقليات ومن أمثلة الأقطار التي تدخل تحت هذا النوع من التكوين العرقي يوجوسلافيا السابقة وجمهورية التشيك والسلوفاك والهند حيث تتكون كل دولة منها من أكثر من مجموعة جنسية تتصف كل منها بصفات ثقافية واجتماعية مختلفة عن الأخرى .

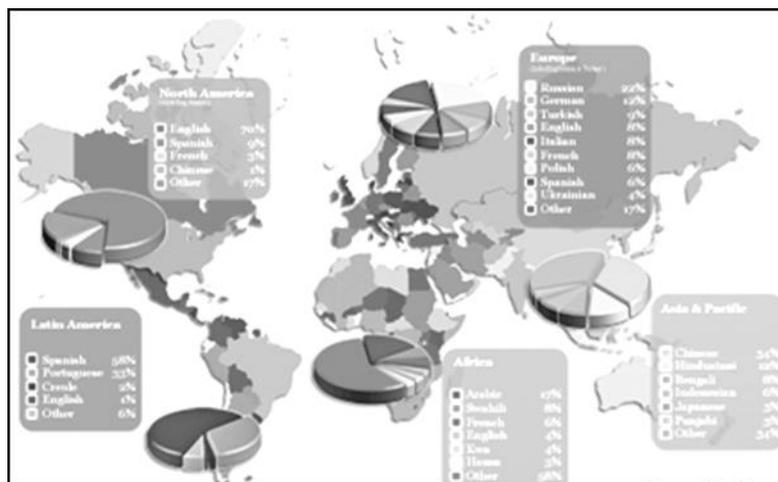
ويوجد نمط ثالث للتكوين الأثني والعرقي للدولة ، وهو نمط وسط بين النمطين السابقين ويتصف بوجود أكثر من قومية في الدولة غير أن مصالحها جميعاً واحدة ولغتها واحدة ومن ثم استطاعت هذه القوميات أن تتلاءم مع بعضها وتعيش سوياً الأمر الذي ترتب عليه في النهاية أن تظهر هذه القوميات بشخصية

واحدة للدول ولعل من أبرز الأمثلة في هذا الصدد الولايات المتحدة الأمريكية التي تمكنت من صهر كل العناصر الوافدة بما فيهم الزوج وتكون مجتمع متجانس إلى حد ما بفضل فرض لغة واحدة على كل المواطنين.

- اللغة

تمثل وسيلة التفاهم والتخاطب بين المجموعات البشرية خاصة المرتبطة حضارياً وسياسياً ، فهي تعد الرابطة القوية التي توحد بين أبناء الشعب أو الأمة الواحدة ، وتمثل إحدى الروابط المتينة خاصة إذ كانت مرتبطة بالدين مثل اللغة العربية وارتباطها بالإسلام .

وخريطة توزيع اللغات في العالم كالموزاييك الذي يجمع آلاف اللغات واللهجات المتنوعة أو المحدودة الانتشار التي لا يتعدى المتحدثين بها بعض مئات ، إلى اللغات واسعة الانتشار التي يتحدث بها مئات الملايين ، ففي أوراسيا تنتشر اللغة السامية خاصة العربية والتي يتحدث بها ما يزيد على 300 مليون نسمة .



(خريطة اللغات في العالم)

ويتسم التوزيع الجغرافى للغات المنتشرة بالعالم حالياً بعدة خصائص أهمها :

1- تخطى انتشار عديد من اللغات الحدود السياسية مثل الإنجليزية التى تسود فيما يعرف بدول الكومنولث وهى التى كانت تحت الاستعمار البريطانى ويصل حجم سكانها إلى أكثر من مليار ونصف، وهناك أيضاً اللغة الفرنسية والتى ينصوى تحتها ما يعرف باسم المجموعة الفرنكوفونية والتى يقرب عدد دولها حوالى 50 دولة ، وتندرج تحت هذه الفئة اللغة العربية التى يتحدث بها أكثر من 300 مليون نسمة.

2- تتعدد اللغات داخل الوحدة السياسية الواحدة مثل الهند (مئات اللغات واللهجات)، الاتحاد السوفيتى السابق (حوالى 125 لغة ولهجة) ، سويسرا (ثلاث لغات) ، بلجيكا (ثلاث لغات) ، جيبوتى (ثلاث لغات) ، كندا (لغتان) .

3- دول تقتصر على لغة واحدة : مثل العربية (مصر)، اليابانية (اليابان) و الأيسلندية (آيسلند) و البولندية (بولندا) .

4- لغة أقليات : هناك لغات يقتصر المتحدثين بها على أقلية عرقية أو دينية لأسباب تاريخية أو سياسية مثل "الباسك ، بشمال أسبانيا ، الأكراد فى الشرق الأوسط ، البربر فى الجزائر،....." وتعد اللغة إحدى وسائل تماسك الدولة إذا كانت ذات لسان واحد ، فى حين يسود التوتر والقلق السياسية إذا كانت هناك مجموعات لغوية تستند على دعاوى انفصالية .
- الدين :

يشكل الدين أقوى الدوافع الكامنة داخل الإنسان وأقدسها ، ويعد عامل استنفار وشحن للهمم ، وتعود عديد من الصراعات القديمة والحديثة أيضاً إلى عامل دينى ، حيث أنه يعد من أسباب الحروب ودافع رئيسى مؤدى إليها .

والغرض الأساسى للأديان نشر الفضيلة والحث على الخير والسلام، ونبذ العنف والظلم ، والتشريع لعبادة الله وتضع لذلك منهاجاً لتنظيم العلاقات على مستوى الأفراد والجماعات ، وعلاقات الحاكم بالمحكوم وغيرها ، إلا أن هناك ما يتخذ الأديان كوسيلة من وسائل التمييز الدينى ضد جماعات بعينها أو دولة ضد دولة أخرى ، أو مذهب ضد آخر حتى داخل الدين الواحد .

تتعدد الأديان حالياً بجميع أنحاء العالم منها الأديان السماوية (الإسلام - المسيحية - اليهودية) ومئات أخرى غير سماوية ، ويندرج تحت كل دين مذاهب متعددة وعشرات من النحل ، بالإضافة إلى انتشار الوثنية فى عديد من نواحى العالم .

وأهم الملاحظات على خريطة العالم لتوزيع الأديان :

1- تنتشر المسيحية بين أكثر من ربع سكان العالم (1.5 مليار نسمة)، حيث

تنتشر بأوروبا والعالم الجديد وأجزاء من أفريقيا وآسيا .

2- يسود الإسلام بين أكثر من مليار و300 مليون إنسان ، يتركز أغلبهم بقارتى

آسيا وأفريقيا وأقليات ببقية قارات العالم .

3- يبلغ عدد معتقى اليهودية حالياً حوالى 14 مليون يهودى ، موزعين على

بلدان العالم المختلفة ، 6 مليون منهم يعيشون بالولايات المتحدة الأمريكية

ويكونون قوة ضغط على السياسة الأمريكية لتحكمهم بكافة المناشط

(الاقتصادية - الإعلامية....) ، وفى فلسطين ، أقام 5 مليون يهودى دولة

اسرائيل على حساب أصحاب الأرض الأصليين أما باقى اليهود فينتشرون

فى بقية أنحاء العالم مكونين أقليات ذات نفوذ قوى.

بالإضافة إلى ذلك هناك ما يزيد على 600 مليون هندوسى فى الهند ،

وحوالى 700 مليون بوذى ونحو 300 مليون كونفوشيوسى بجنوب شرق آسيا

، ويوجد فى اليابان ما يزيد على 125 مليون يعتنقون الشنتوية ، وهناك ملايين

من البشر يمارسون طقوس طوطمية ووثنية فى عديد من بقاع العالم

يؤدى التنوع الدينى إلى قيام حروب أهلية ودولية يكون الدين هو أساس وقودها ، وتأتى أيرلندا كنموذج لذلك حيث الصراع الدموى بين البروتستانت والمدعومين من قبل حكومة بريطانيا وجماعات الكاثوليك الذين يسعون إلى تحرير الجزء المحتل من قبل بريطانيا ، وهناك أيضاً حروب البوسنة والهرسك وكوسوفو حيث يسعى المسلمون للاستقلال ، وفى الشيشان التى تحاول إعلان استقلالها عن الاتحاد الروسى ، وغيرها من حروب سابقة (الهند - باكستان ، يونان - تركيا) وأيضاً حروب لاحقة .

ثالثاً : المقومات الاقتصادية :

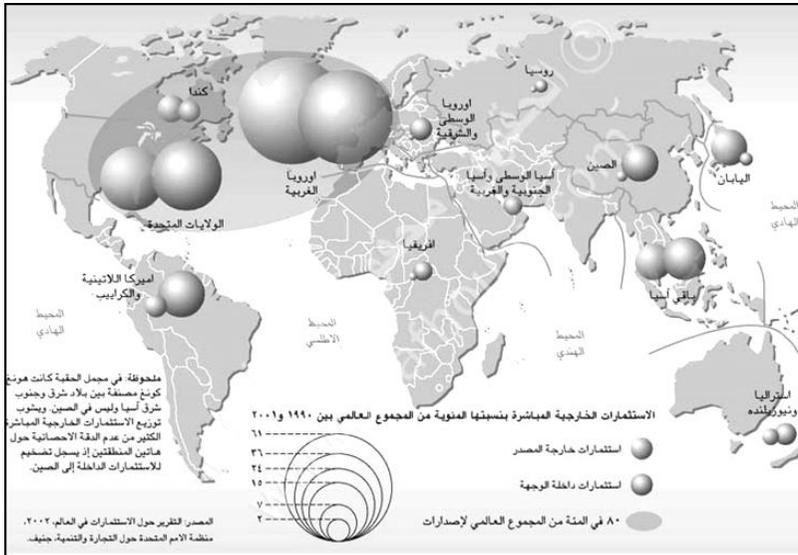
يعود الاهتمام بدراسة أثر العوامل الاقتصادية فى نشأة وتطور الدولة إلى عدة اعتبارات ، فالموارد الاقتصادية لها تأثير كبير فى القوة السياسية للدولة ، ويرتكز التطور الاقتصادى على الظروف الجغرافية للدولة ، فلكى تؤدى الموارد الاقتصادية دورها المؤثر فى سياسة الدولة لا بد من استغلالها وتنميتها والمحافظة عليها من الاستنزاف .

فالسياسة الاقتصادية وتنفيذها يرتبط بالمعطيات السياسية حيث يؤدي التغيير فى نمط توزيع الثروة بالدول وعلى مختلف القوميات إلى تغيير كبير فى الشكل السياسى ، ويضاف لذلك أن العلاقات الاقتصادية تكون جزءاً مهماً من العلاقات السياسية الدولية والتي تمثل أهمية فى الجغرافيا السياسية .

الحدود السياسية: Boundaries

تهتم الجغرافيا بدراسة الحدود السياسية "Boundaries" من خلال مواقع هذه الحدود كواقع جغرافى، ونتائج توقعها على الخرائط السياسية ، سواء كانت هذه النتائج بشرية مرتبطة بحركة وتوزيع السكان وكذلك شبكة النقل والمواصلات ... ، أم كانت نتائج طبيعية مرتبطة باستغلال الأنهار أو الموارد الكامنة (معادن ، مياه، بترول) ومجال المياه الدولية وأيضاً أنماط الحدود وتصنيفها من حيث الوظيفة أو الشكل ...

ويشير المدلول اللغوى لكلمة "الحد" إلى الحجز أو الفصل منعاً للاختلاط



والشيوع، وفى مجال الجغرافيا السياسية تعنى أكثر بالمنطقة التى تُحدد لكى تمارس الدولة - أى دولة - سيادتها من خلالها ، ويحق لها الانتفاع بمواردها واستغلال كافة الإمكانيات التى توجد بها .

والمفترض أن تشمل الحدود السياسية للدولة على كافة أبعاد السيادة ، بمعنى أن تحدد الإطار البرى وكذلك تحديد المياه الإقليمية سواء مياه عذبة أو مياه مالحة ، بالإضافة إلى المجال الجوى ومناطق السيادة فى السماء ، وتعد الحدود السياسية من أكثر عوامل عدم الاستقرار الدولى و ذلك بسبب عدم ترسيمها بصورة قاطعة ومحددة ، بحيث تعرف كل دولة إطارها الجغرافى وبالتالي إقليم سيادتها وتعزو صعوبة الترسيم لأسباب متعددة وعوامل مختلفة منها ما يتصل بالجغرافيا وأخرى بالتاريخ وثالثة بالسياسة....

والحدود السياسية ظاهرة بشرية فى المقام الأول وهو ما يعنى تغييرها من آن لآخر ، وذلك حسب الظروف السياسية ، حيث أنها تكون أحياناً حدود مفروضة على دول ما فرضاً وقسراً وبمجرد التحرر من هذه الظروف تسعى هذه الدول إلى تغيير الواقع سواء بالمفاوضات (اليمن - السعودية) أو عن طريق الحروب والعمليات العسكرية (إيران - العراق ، إرتريا - أثيوبيا) فمن هنا تكون مشاكل الحدود السياسية مصدر نزاع ومثار مشكلات وتهديداً للأمن والاستقرار الدولى دائماً ، وبصفة خاصة بين دول العالم الثالث والتي لم تعرف الاستقرار السياسى حتى الآن.

أسباب نشأة الحدود السياسية :

ورثت الحدود السياسية التخوم وقامت بدورها مع الاختلاف الواضح بين الظاهرتين ، فكما كان للتخوم أسبابها ، كانت للحدود أيضاً دوافعها التى حدث بها إلى الظهور على خريطة العالم السياسية ، ومن أهم هذه الأسباب والدوافع :

— التوسع الجغرافى للدول على حساب التخوم المجاورة (الصحارى - الغابات...) ونتج عن ذلك النزاعات بين الدول كلٍ تدعى الحق فى هذه التخوم ، فكان الاتجاه لتحديد هذه التخوم بواسطة الخطوط الفاصلة .

— أدى استقلال عديد من دول العالم الثالث فى النصف الثانى من القرن العشرين إلى نشأت الحدود الهندسية بين هذه الدول المستقلة حتى تمارس هذه الدول المستقلة سلطاتها وسيادتها

— رغبة الدول فى تطوير تخومها وأقاليمها الهامشية تجنباً للاصطدام بجيرانها ، فتسعى للاتفاق على رسم حدودها هندسياً لتحديد مجالها الجغرافى .

— نتجت بعض الحدود السياسية بعد عقد معاهدات واتفاقيات سياسية حتى تضمن الدول وخاصة الصغرى منها السيادة على مجالها خوفاً من الأطماع الاستعمارية .

— تمثل الحروب والنزاعات أحد أسباب ترسيم الحدود ، خاصةً تلك النزاعات المرتبطة بالحدود بين الدول ، فكان من نتائج هذه الحروب التوصل إلى اتفاقات لتسوية هذه النزاعات .

وظائف الحدود :

تمثل سيادة الدولة وممارسة سلطاتها داخل إطار محدد أبرز وظائف الحدود السياسية وأهم عوامل قيامها ونظامها السياسى وكذلك توجهها الاقتصادى وغيرها من عناصر السيادة .

وتعد الحماية من أبرز أهداف ترسيم الحدود ، حيث تقوم الدول بعمل استحكامات عسكرية خاصة فى المناطق الحدودية سهلة المنال وتحتاج لتقوية، مثل ما فعلت فرنسا بإنشاء خط ماجينو مقابل الحدود الألمانية والتي واجهت ماجينو بإنشاء خط سيجفريد ليقوم بنفس الوظيفة ، ويندرج خط بارليف الذى أنشأته إسرائيل على طول خط قناة السويس تحت عامل الأمن والحماية ، وإن لم تجد هذه التحصينات حيث تم تحطيمها خلال المعارك التى دارت حولها .

تأتى سيطرة الدولة وتحكمها فى موارد الاقتصادية من وظائف الحدود حتى لا تتضارب مصالح الدول الاقتصادية بعضها البعض و لا تكون مدعاة

لنشوب نزاعات وحروب كما حدث بين فرنسا وألمانيا ونزاعهما الطويل على فحم السار وحديد اللورين ، أو ماحدث خلال حرب الخليج الثانية والتي غزت فيها العراق دولة الكويت بدعوى استنزاف الكويت لحقل الرميلة العراقي على الحدود بينهما.

وتأتى النزاعات حول المياه فى إطار الحماية الاقتصادية بتحديد مناطق استغلال المياه وحفر الآبار والعيون بالمناطق الحدودية ، وكثيراً ما تكون النزاعات ناتجة عن تقسيم حقوق المياه والغاز الطبيعي والبتروى والتي توجد بصورة متحركة ويمكن سحبها بوسائل تقنية حديثة ، فتصبح مثار خلاف كبير ومشاكلها أكثر تعقيداً من تلك الموارد الصلبة التي يمكن تقسيمها والاتفاق على مناطق استغلال كل دولة .

وتمثل السيادة القانونية إحدى وظائف الحدود حيث تمثل الحدود الشرعية بالنسبة للدولة التي تطبق خلالها كافة القوانين والتشريعات الخاصة بها ولا يمكن تجاوزها بأى حال ، فالحدود هنا تمثل إطار السيادة والشرعية ويخضع لقوانينها مواطنيها أو الوافدين إليها .

تصنيف الحدود :

تتعدد الحدود وتتنابىن فهناك حدود أخذت صفة الاستقرار وأخرى لازالت فى حالة تغير، وهناك حدود فاصلة وأخرى واصلة، وحدود طبيعية وأخرى هندسية وهكذا تختلف الحدود فيما بينها وتتنابىن ، ويمثل التصنيف الشكلى للحدود أبرز هذه الأنواع لارتباطه بالعوامل الجغرافية .

أولاً: الحدود الطبيعية :

يعتبرها بعض الباحثين أفضل أنواع الحدود لما تمثله من أهمية إستراتيجية ذات قيمة دفاعية مهمة ، بالرغم من أن تطور الوسائل العسكرية وظهور الصواريخ عابرة القارات وبروز القوات الجوية فى حسم المعارك ، قلل من

أهمية الحدود الطبيعية فى العصر الحديث ، ومع ذلك احتفظت هذه الحدود بوضعها كنموذج مثالى للحدود .

(نهر الراين والحدود السياسية)

ثانياً: الحدود الهندسية :
إذا كانت الحدود التى تسير مع مظاهر طبيعية قد ورثت التخوم القديمة وتطورت عنها ، خلال العصر الحديثه ، فإن الحدود الهندسية قد أورتها الاستعمار بعد مرحلة التحرر ، لذلك نجد أنها تنتشر بأفريقيا والدول المستعمرة بعد



الكشوف الجغرافية كأمرىكا الجنوبية وتظهر كذلك فى أمرىكا الشمالية ، وتنسم هذه الخطوط بأنها فلكية الطابع أى أنها تتخذ من خطوط الطول ودوائر العرض مسارات لها .

ونتيجة لذلك تبدو على هيئة خطوط مستقيمة تفصل بينها نقاط معروفة أو تماس الدوائر وأنصاف الأقطار ، وتنطلق من معالم واضحة وعلى أبعاد متساوية ، وتبدو عليها الصفة الهندسية التى ارتبطت بها .

ويرى عديد من السياسيين أن الحدود الهندسية من أفضل أشكال الحدود إذ ما حُطت بالأراضى العذراء أى أنها تسبق الاستقرار البشرى ومظاهر

العمران حتى تتفادى مشكلات التقسيم وتشتيت السكان ذى الأصول المشتركة بين أكثر من دولة .

تبدو صعوبة الحدود الهندسية فى رسمها حيث أنها نظرية فى المقام الأول أى يسهل رسمها على الأوراق أما توقيعها عملياً غايةً فى الصعوبة من حيث النفقات والمجهودات الكبيرة (نماذج من الحدود الهندسية)

، وتثير كثيرًا من المنازعات وخاصة عند تجاهلها الواقع التى تمر به ، لذلك تمثل الحدود الهندسية أصعب أنواع الحدود عند رسمها وتنفيذها على أرض الواقع .



ويمثل المرسوم الذى وضعه البابا ألكسندر الثالث بناءً على طلب كل من "إيزبيلا وفرديناند" ملكى أسبانيا وذلك لتحديد النفوذ الأسبانى والبرتغالى من الأراضى المكتشفة من قبلهما فى نهاية القرن الخامس عشر ، حيث اقترح البابا عام 1494م أن يكون خط طول 47° غرباً فاصلاً للنفوذ بين الدولتين ، ويمثل هذا الحد نموذجاً تاريخياً للحدود الهندسية .

ويندرج تحت نمط خطوط التقسيم المستقيمة هذه الحدود التى تفصل السيادة على مناطق النفوذ البحرية وما تشمله من جزر وأرصفة قارية ومياه دولية ، مثال ذلك الخط الفاصل بين ألسكا (الولايات المتحدة) وسيبيريا (روسيا) ، وأيضاً الخط الذى يفصل بين الجزر الإندونيسية والجزر الفلبينية

، ومن أبرز مثالب الخطوط الهندسية عدم مراعاتها أحياناً لعدد من المظاهر البشرية التى تخترقها ومن ثم لا تأخذ فى حسابها الاعتبارات الحضارية المشتركة والقوميات ذات الأصل الواحد ، مما ينجم عنه مشاكل

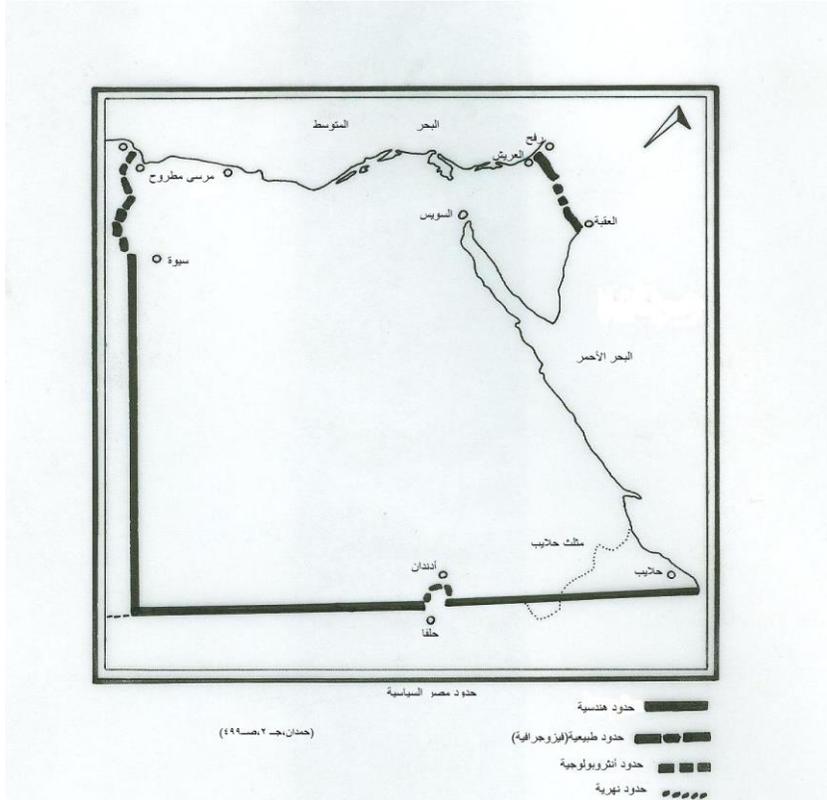
خطيرة، ومن أبرز النماذج على هذه المشكلات " شعوب غرب" أفريقيا والتي كانت مستعمرة من عدة دول غربية (بريطانيا-فرنسا-ألمانيا-بلجيكا) وعند ترسيم الحدود السياسية لم تراعى الوحدة القبلية لها، كشعب الأيوى أو الأشانتى حيث توزعت هذه القبائل على أكثر من وحدة سياسية بين غانا وتوجو وساحل العاج ، مما جعل الشعب الواحد يخضع لنظم سياسية واقتصادية مختلفة ، وتحدهم الآمال فى لم الشمل مرةً أخرى .

تعد مشكلات الحدود الهندسية فى أفريقيا من أبرز مثالب هذه الحدود ، فلا يقتصر الأمر على غرب أفريقيا بل فى وسطها وتمثل قبائل "التوتسى والهوتو" أبرز نماذج لذلك، حيث تنتشر بين كل من أوغندا ورواندا وبورندى حتى زائير فى الغرب وغنى عن البيان المشاكل التى تعيشها المنطقة حالياً والذى أودى بأكثر من 2 مليون شخص من هذه القبائل فى صراعات داخلية ، وينطبق نفس الوضع على شرق أفريقيا حيث قبائل الماساى والزاندى وتشتتت فى تنزانيا وكينيا وغيرهما.

لذلك يجب إعادة النظر فى تعديل الحدود السياسية لعدد من الدول الإفريقية حتى يتسنى جمع شمل الشعوب ذات الأصول القبلية الواحدة ، حتى يسود الاستقرار السياسى أنحاء القارة التى تمزقها الصراعات والحروب الداخلية وتمثل القبلية أبرز سماتها وأهم وقود لها .

وفى مصر كانت للحدود الفلكية مشاكلها ، حيث فرض الاحتلال الإنجليزي خط عرض 22 شمالاً كحد فاصل بين مصر والسودان ، وخط طول 25 شرقاً يفصلها عن ليبيا فى الغرب ، وقد نجم بعد ذلك مشكلات إدارية على هذين الحدين مثل مشكلة "حلايب" على الحدود المصرية السودانية ، وهذه المنطقة عبارة عن مثلث يمتد لمسافة 200 كم على ساحل البحر الأحمر ، وتبلغ مساحته الكلية حوالى 12500 كم2 .

بعد ترسيم الحد الجنوبي لمصر وهو دائرة عرض 22° شمالاً حسب اتفاقية عام 1899م ، اقترح حاكمى بربر السودانى وأسوان المصرى فى عام 1902م وضع حدين إداريين داخل مصر ، وفعلاً



أصدر وزير الداخلية المصرى حينذاك (مصطفى باشا فهمى) قراراً بتعديل الحدود فى ثلاثة مواضع بمناطق (مثلث حلايب، منطقة بارتازوجا ، أندنان بوادى حلفا) وُسمح للقبائل السودانية بدخول منطقة حلايب دون أى إجراءات وفى المقابل سمح لقبائل العباودة المصرية أن تدخل منطقة بارتازوجا (600كم2) السودانية ليكون الاتصال بين العباودة على الجانبين سهلاً. اعتبر وزير الداخلية أن هذا التعديل مسألة داخلية لاتمس الحدود الدولية المتفق عليها سابقاً (1899م) ، وفى عام 1907م ألغى الأمر الخاص بمنطقة مثلث

بارتزوجا وأنهت بحيرة ناصر منطقة أندنان وظلت حلايب تمثل مشكلة يطالب بها السودانيون كأرض سودانية ، وإن كان الواقع خلاف ذلك .

وإن كانت مشكلات الحدود الهندسية متعددة وأحياناً معقدة ، إلا أن هناك بعض الحدود الهندسية النموذجية من أبرزها الحد السياسي بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية والذي يمتد لمسافة أكثر من 2000 كم ، ويسير مع خط عرض 49° شمالاً ، وهناك أيضاً خط الهدنة بين الكوريتين والذي أعتبر خطأً فاصلاً ويتفق مع خط عرض 38° شمالاً ، وأيضاً الخط الذي كان يفصل بين كل من فيتنام الشمالية والجنوبية وهو خط عرض 17° شمالاً وإن توحدت الدولتان وألغى هذا الخط الفاصل .

والخلاصة أن الحدود السياسية سواء كانت حدوداً طبيعية أو حدوداً اصطناعية عبارة عن خطوط رسمها الإنسان على الخرائط لتحدد الأراضي التي تباشر فيها الدولة سيادتها والحدود السياسية تختلف في مفهومها السياسي عن مناطق الحدود (التخوم) إذ أن هذه المناطق عبارة عن مساحات خالية تفصل بين دولتين متجاورتين بغرض منع الاعتداء والتصادم بينهما وهي بذلك تختلف أيضاً عن المياه الإقليمية التي تمثل شريط المياه المجاور لسواحل الدولة والخاضع لإشرافها وسيادتها .

- المراجع

— أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل ت732هـ / 1331م)، تقويم البلدان - باريس - 1840م.

— حسين مؤنس - مصر ورسالتها - القاهرة - 1973م .

— جمال حمدان - شخصية مصر - المجلد الثاني - القاهرة - 1981م.

— جمال حمدان - الجمهورية العربية الليبية، دراسة في الجغرافيا السياسية - القاهرة - 1973.

— فتحى أبو عيانة - الجغرافيا السياسية - الإسكندرية - 1989م.

- عباس عمار - المدخل الشرقى لمصر - القاهرة - 1946م.
- عيسى إبراهيم - جغرافية مصر - الإسكندرية - 1998م.
- محمد محمود الديب - الجغرافيا السياسية "منظور معاصر" - القاهرة (د.ت) ، ص ص 19-114 .
- محمد إبراهيم صالح- الجغرافيا السلوكية - الرياض - 1987 - ص ص 30-40 .
- محمد السيد غلاب وزملائه، الجغرافيا السياسية، القاهرة، 1961.
- محمد فاتح عقيل، مشكلات الحدود السياسية، الإسكندرية، 1963.
- محمد عبد الغني سعودي، الجغرافيا والمشكلات الدولية، بيروت، 1968.
- يسرى الجوهري - الجغرافيا السياسية والمشكلات العالمية - الإسكندرية - 1986 - ص ص 5-15 .
- المراجع غير العربية:
- Alexander, L., World Political Pattern, Chicago, 1957, PP. 25-40.
- Jackson, W., Whither Political Geography? A.A.G., Vol. 48,1958, PP. 170-158.
- Hartshorne, R., The functional approach in Political Geography, A.A.A.G., Vol. 49,1950, PP. 85-90.
- Cohen, B., Geography and politics in a divided World, London, 1964.
- Bogge, S.W., International boundaries, A study of boundary functions and Problems, N.Y., 1940.
- Bowrran, C., The new World problems in political geography, N.Y., 1921.

